دور مصر التاريخي بين

شبه الجزيرة العربية وأفريقيا

في عصور ما قبل الإسلام

تأليف

الدكتور سيد أحمد علي الناصري

كلية الآداب – جامعة القاهرة

دار النهضة العربية

٣٢ شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة

مطبعة جامعة القاهرة

والكتاب الجامعي

١٩٩٠

ا.د. سيد احمد على الناصرى
استاذ التاريخ القديم بآداب القاهرة

دراسات فى تاريخ العرب القديم

المصريون والعرب وعلاقاتهم بافريقيا فى العصور القديمة

الناشر : دار النهضة العربية

١٩٨٩ - ١٩٩٠م

المصريون والعرب وعلاقاتهم بأفريقيا
فى العصور القديمة

بقـلم

أ.د. سيد أحمد على الناصرى

استاذ التاريخ القديم ــ كلية الآداب ــ جامعة القاهرة

لم يحظ تاريخ أفريقيا فى العصور القديمة بالاهتمام الذى يليق بتاريخ قارة هى واحدة من ثلاث قارات أقدم ما عرف العالم ، فقد غطى تاريخ الاستعمار الأوربى فى العصر الحديث لأفريقيا على تاريخها القديم بدرجة تعطى الايحاء بأن تاريخ هذه القارة يبدأ مع وصول هذا الاستعمار ، وبأنه هو الذى حمل مشعل الحضارة والرقى الى الأرض الأفريقية ، وأن شعوبها ــ قبل وصول البيض ــ كانوا يعيشون فى العصور الحجرية ، بالرغم من علمهم أن مجاورة أفريقيا للشرق الأدنى ــ مهد الحضارات الأولى فى تاريخ العالم ــ جعل هذه الحضارات تفد الى الأرض الأفريقية قبل أن تفد الى قارة أوروبا ذاتها . هذا التشويه المتعمد أهمل ماضى هذه القارة السوداء ، أو مر عليه مرورا سريعا أو أبرز منه الجوانب التى تخدم الهدف الاستعمارى الأوربى . ومن ثم كان علينا أن نعيد الحق الى أصحابه ، ليس كأمة لها تاريخ عريق مع هذه القارة ، وتشغل جزءا من أرضها ، ولكن كأمناء على تاريخ البشرية .

ولعل من الأسباب التى جعلت المؤرخين الأوروبيين يهملون ماضى أفريقيا هو ارتباطها الحضارى مع تاريخ العرب القديم ، وقبل وصول العرب الى شرق أفريقيا بوقت طويل ، كان المصريون قد مهدوا الأرض الأفريقية بحركات كشوفاتهم البرية والبحرية لسواحل شرق أفريقيا ، ثم قاموا فى العصور البطلمية بنشر الحضارة والعمران فى سواحلها ، وكذلك فعل الفينيقيون فى شمال أفريقيا وغربها ، ولما وقعت قرطاجة فى براثن

الأستعمار الرومانى ، ثم تلاها وقوع مصر واحتلال الرومان لها ، تسلم عرب الجزيرة رسالة المصريين والفينيقيين ، وبدأت الدويلات العربية فى الجزيرة قبل الاسلام تتفاعل حضاريا وبشريا مع شعوب شرق أفريقيا ، مثمرة حضارة عربية أفريقية مشتركة تتمثل فى دولة الحبشة ، التى برزت على الساحة الدولية كثانى قوة سياسية فى تاريخ أفريقيا بعد مصر ، ولما تدهورت الدولة الحميرية فى جنوب الجزيرةالعربية لاسباب طبيعية وسياسية نتيجة لسيطرة الروم على مصر وشمال أفريقيا ، برزت دولة أكسوم الافريقية ، وبفضل ارتباطها السياسى والدينى مع امبراطورية الروم تمكنت من فرض هيمنتها على جنوب الجزيرة ، وحققت للروم ما فشل فيه الرومان * فى حملتهم على الجزيرة العربية فى الربع الاخير من القرن الاول قبل الميلاد . وخلال القرون الثلاث السابقة على الاسلام ، تشابك تاريخ جنوب الجزيرة مع تاريخ الحبشة بدرجة يجعل من الصعب الفصل بينهما ، وبقدر يفوق تشابك تاريخ مصر فى العصور الفرعونية والبطلمية مع تاريخ شرق أفريقيا ومن ثم حتى لا يدرس هذا الموضوع مبتورا أو ناقصا ، لابد بالبدء بتاريخ النشاط المصرى فى أفريقيا ، باعتباره البداية ، التى مهدت للدور العربى — فتاريخ مصر يتشابك مع تاريخ العرب القديم بقدر تشابكه مع تاريخ أفريقيا . كذلك مهدنا للدور الذى لعبه الفينيقيون — أحد الفروع السامية التى خرجت من الجزيرة — فى شمال أفريقيا وغربها .

* * *

فى صخور الجبال عند الشلال الثانى ، تطل بضع قبور ذات نقوش هيروغليفية ، نفهم منها أنها قبور مسئولين رسميين فى بلاط الفراعنة ، كلفوا بالقيام برحلات استكشافية الى مجاهل القارة الافريقية . هؤلاء

---

* الروم هم البيزنطيون أو الروم الشرقيون المسيحيون وهم الاسم الصحيح الذى ورد فى القرآن الكريم وفى المصادر العربية الاسلامية ، أما الرومان فهم سكان ايطاليا القدماء الوثنيون الذين سقطت امبراطوريتهم عام ٤٧٦ م . ويبدأ تاريخ الروم الشرقيين من القرن الرابع الميلادى . وينتهى بسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٢ م فى أيدى العثمانيين .

هم الجنود المجهولون ، والرواد الاول ، الذين مزقوا أستار الغموض الذى كان يحيط بأفريقيا ، لقد سجلوا مغامراتهم المثيرة بين القبائل الأفريقية على نقوش مقابرهم (١) ، ولقد هلك بعضهم خلال رحلاتهم الشاقة على ظهور البغال والحمير ، وعاد البعض الآخر سالما ليلقى التبجيل والتكريم من الفرعون . وأشهر هؤلاء المستكشفين الرحالة حرخوف ، والذى قص علينا كيف أن الفرعون مرنرع أرسله ثلاث مرات لاكتشاف مجاهل افريقيا ، وأن رحلته الرابعة كانت بتكليف من الفرعون بيبى الثانى ، والتى وصل فيها الى النوبة العليا والى اواسط أفريقيا ، حيث يعيش الأقزام ، وأن حرخوف جلب معه قزما ليضحك به مولاه الفرعون ، وقد عبر له الفرعون عن تقديره وشكره ، وسجل هذا التقدير على واجهة المقبرة (٢) .

انه لمن المدهش حقا أن نجد اهتمام المصريين باكتشاف مجاهل أفريقيا قديم قدم عصر الدولة العتيقة ، فالنقوش تتحدث عن نشاط الفرعون خع سخموى آخر فراعنة الاسرة الثانية ، والفرعون زوسر أول ملوك الاسرة الثالثة ، واهتمامهم بأفريقيا ، وأنهما بعثا برحلات برية توغلت فى بلاد النوبة ، كما واصل الفرعون ساحورع ثانى ملوك الاسرة الخامسة هذا النشاط وزاد عليه ، حتى أن علماء التاريخ المصرى القديم ينسبون اليه وضع مسار بحرى ثابت بين مصر وساحل الصومال . ولم يكن الدافع لهذه الحملات الاستكشافية الباهظة التكاليف هو الاستعمار الدائم لهذه المناطق النائية ، أو البحث عن منابع النيل ، بل كان الدافع هو الحصول على حاجة المعابد من البخور والعطور من أجل بقاء قيام الشعائر الدينية ، وكذلك الحصول على المواد الطبية اللازمة لعملية التحنيط والتى كانت تدخل أيضا فى نطاق الشئون الدينية . ولقد التزم المصريون برباط مقدس لارضاء آلهتهم بقاء لمصر وللنظام الكونى ، فهذا هو الاصل الثابت فى العقيدة الدينية المصرية (٣) ، فالاهوال التى لاقاها الرحالة المصريون فى مجاهل أفريقيا لم تكن تقل أبدا عن المعاناة التى تحملها عشرون الفا من عامة الشعب فى عمل دائم لمدة عشرين عاما من أجل بناء مقبرة للفرعون المؤله والممثلة فى الاهرامات (٤) .

ولقد كانت مدينة أسوان ، هى نقطة الانطلاق المصرى للكشوفات البرية لمجاهل أفريقيا ، وذلك لان هذه المدينة من الناحية الاثنولوجية هى بداية أفريقيا ، كما كان معنى اسم « أسوان » فى اللغة المصرية هو « السوق » الذى تلتقى فيه تجارة مصر مع أفريقيا ، خاصة الأعشاب الطبية وسن الفيل الذى كان الفنانون المصريون فى حاجة مستمرة له ، ولهذا نجد أن جزيرة الفانتين (أنس الوجود) كان اسمها بالمصرية القديمة « آب » ومعناها العاج . وهكذا هيأت الظروف الجغرافية لمصر أن تكون البوابة الشمالية لأفريقيا والتى توغل خلالها المصريون الى مجاهل وأعماق القارة السوداء .

ويذهب « آركل » Arkell الى أبعد من ذلك اذ يرى أن سكان منطقة وادى النيل الأزرق والأبيض كانت تربطهم علاقات حضارية مع مصر منذ عصر ما قبل الأسرات ، وأن العنصر الزنجى وعنصر البحر المتوسط وجدا فى وقت واحد فى أفريقيا (٥) ، فلقد لعب طريق الواحات ودرب الأربعين دورا هاما فى الربط بين مصر وأفريقيا وخاصة منطقة النوبة التى كان المصريون يكنون لها شعورا بالقداسة لارتباطها بالعقائد المصرية ، بل ربما كانت المهد الأول لها . فمثلا تذكر الاساطير الدينية المصرية أن النوبة هى مهد حورس الأدفاوى ، كما صور المصريون أهل النوبة بلحى مقدسة لايظهر بها المصرى الا بعد ارتحاله الى عالم اوزوريس (٦) ، ويرجح أن مبعث ذلك الشعور بالقداسة ، هو أن النوبة كانت مستودعا لكل متطلبات الشعائر الدينية وكهنوت المعابد من عطر وبخور ومواد تحنيط . ولقد وصل التوغل الثقافى المصرى حتى اقليم دارفور الواقع الى الجنوب من ليبيا ، بل ربما وصل الى تشاد واواسط أفريقيا . ولما كانت البذور الأولى للعقيدة المصرية أفريقية ، فقد تقبل الافريقيون العقيدة المصرية العائدة اليهم مرة أخرى من مصر بصدر رحب ، ففى النوبة نجد السكان يعبدون بشغف آلهة مصر مثل خنوم وآمون وحتحور ، كما أن مجمع الآلهة المصرية ضم آلهة أفريقية بحته مثل بس Bes الرب الافريقى القزم (٧) .

ولقد ظلت حركة التبادل التجارى والثقافى نشطة بين مصر وأفريقيا عن طريق النوبة خلال عهود الدولة القديمة والوسطى ، وبلغت ذروتها فى عصر الدولة الحديثة . عندما قامت الملكة حتشبسوت فى حوالى عام ١٤٩٥ ق.م برحلة بحرية كبرى سيرتها الى بلاد « بونت » ، والباحثون يكادون يتفقون الآن على أن بونت كانت تشمل المناطق العربية والافريقية الواقعة عند مخرج باب المندب ، ولعل ذلك يشمل جزيرة سوقطرة هذه الرحلة رأت الملكة أنها عمل جدير بأن يسجل تصويرا على جدران معبدها فى الدير البحرى ، حيث تظهر السفن محملة بأخشاب الابنوس والعاج والبخور والكحل ونبات المر ، وبعض الاشجار الافريقية ، غير النسانيس والقردة ، وجلود الحيوانات وريش النعام (٨) . وهكذا عرفت خيرات أفريقيا طريقها الى العالم الخارجى عن طريق مصر ، وخلال ذلك تغلغلت الحضارة المصرية الى اواسط افريقيا وغربها . وكما يلاحظ العلامة فيرمان Fairman فان الآلات الموسيقية التى تستخدمها قبائل غرب أفريقيا أفريقيا تحمل شبها كبيرا لآلات الطرب والموسيقى المصرية ، كما تأثرت الحضارة المصرية بالمؤشرات الافريقية خاصة فى مجال الشعائر الدينية والطقوس الملكية (٩) .

وبمرور الزمن تشبعت النوبة بالثقافة المصرية ، والتى هى فى الاصل افريقية الجذور ، حتى أنهم بعد تدهور القوة المصرية بعد انتهاء اسرة الرعامسة ، اعتبروا أنفسهم الورثة الشرعيين لتراث هذه الحضارة خاصة التراث الدينى ، لان الظروف الاقتصادية والاجتماعية السيئة التى سادت فى مصر منذ الاسرة العشرين ، دفعت عددا كبيرا من المصريين الى الهجرة الى الجنوب ، وأصبحت نباتا (جبل البرقل فى النوبة) مقرا بديلا لطيبة المصرية كمركز لعبادة آمون لحين عودة الوئام والسلام الى الشمال ، وربما كان ذلك فى بال ملكهم بعنخى (٧٥٠ – ٧١٦) عندما اجتاح مصر ، فقد اقتدى بعنخى بسيرة الفراعنة العظماء الاوفياء للرب آمون ولمعابده وكهنته (١٠) ، بل ربما جاء احتلاله لمصر تلبية لدعوة من كهنة آمون فى

طيبة قبل أن يجتاحها الاشوريون • ولهذا لم يأل بعنخي جهدا فى ترميم المعابد المصرية الأيلة للسقوط ، بل أقام معابد جديدة ، وتشهد الاهرامات والنقوش الهيروغليفية ونصوصها المقدسة المنقوشة على واجهات معابدالنوبة على مدى حرص النوبيين فى الحفاظ على التراث الحضارى المصرى • غير أن الحكم النوبى لمصر لم يستمر طويلا ، اذ رحلوا عنها تحت ضغط الاشوريين الذين دخلوا مصر عام ٦٦٧ ق•م•

عاد النشاط المصرى فى أفريقيا مرة أخرى بعد طرد الآشوريين ، وقيام اسرة وطنية جديدة هى الاسرة السادسة والعشرين ، والتى عرفت بالاسرة الصاوية • وكان الفرعون نخاو الثانى من أبرز ملوكها (٦١٠ ــ ٥٩٤ ق•م) فقد قام هذا الملك بتنشيط تجارة مصر الخارجية عبر الطرق البرية والبحرية ، فقام بشق قناة تربط البحر الاحمر بالنيل ، كما أرسل بعثة لارتياد ساحل أفريقيا الشرقي (١١) ، ولم يتوقف طموحه عند هذا الحد ، فبعد تسعة قرون من رحلة حتشبسوت الجسورة استعان نخاو بالبحارة الفينيقين وبسفنهم الضخمة ، العابرة للمحيطات ليقوم بأول محاولة فى تاريخ الانسانية للدوران حول أفريقيا حوالى عام ٦٠٠ ق•م ، وقد كان خليج السويس نقطة انطلاق هذه « الاوديسا » البحرية ، وعادت السفن عن طريق مضيق جبل طارق ، ولا شك أن تنفيذ هذا المشروع كان يحتاج الى خيال خارق ، وشجاعة واقدام لا يتوفران الا فى فرعون مصر العظيم (١٢) ، حتى أن هيرودوت الذى روى لنا خبر هذه الرحلة تشكك فيها نفسه فيقول بالحرف الواحد « يتضح جليا أن ليبيا (يقصد افريقيا) محاطة بالبحر فيما عدا من جهة حدودها مع آسيا ، وأول من أثبت ذلك هو نخاو الملك المصرى ، فبعد أن توقف عن (مشروع) القناة التى كان قد بدأها بين النيل والخليج العربى (يقصد خليج السويس) ، أرسل الى البحر عددا من السفن ، جهزها بالفينيقيين وأصدر اليهم الاوامر بالابحار نحو أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق) وأن يعودوا الى مصر من خلال عبورها وعن طريق البحر الشمالى • ولقد بدأ الفينيقيون

رحلتهم من مصر عن طريق البحـر الاحمر ، ومنه أبحـروا الى المحيط الجنوبى ، وعندما كان يحل الخريف ، كانوا يلقون بمراسيهم عند ساحل أى مكان تصادف وجودهم فيه ، ثم يزرعون بقعة من الأرض بالقمح ، وينتظرون حتى يصبح القمح معدا للحصاد ، حتى اذا حصدوا الزرع ، عاودوا الابحار ، الى ان انقضى حولان كاملان ، وفى السنة الثالثة ، داروا حول أعمدة هرقل ، وعبروها عائدين الى مصر ، وبعد عودتهم أعلنوا — وأنا نفسى لا أصدق ذلك — وان كان البعض يصدقونه — أنهم عندما كانوا يبحرون حول ليبيا كانت الشمس تطالعهم عن يمينهم ، وبهـذه الطريقة ، اكتشف لأول مرة امتداد أفريقيا » (١٣) . ونلاحظ من الوصف السابق أنه جاء مقتضبا وخاليا من أى تفصيلات حول الوصف الجغرافى والبشرى للمناطق التى مر بها البحارة ، وربما أخفى البحارة الفينيقيون التقرير الوصفى عن الفرعون ، واحتفظوا به لانفسهم ،. لاستخدامه فى أغراضهم التجارية مستقبلا (١٤) ، فمن المعروف أن الفينيقيين كانوا من عادتهم الاحتفاظ بأسرار نتائج رحلاتهم البحرية لانفسهم ، لكن مهما يكن من مجهود الفينيقيين والذى أشاد به الاستاذ جورج فاضلو حورانى ، فان الفضل يرجع الى تخطيط فرعون مصر ، وامكانياته التى وضعها فى خدمة البحارة الفينيقيين الذين اكتراهم ، ويذكرنا بملوك أسبانيا والبرتغال فى عصر الكشوفات الجغرافية فى مطلع العصر الحديث ، عندما كانوا يستخدمون بحارة من غير جنسياتهم للقيام بمشروعات وكشوفات بحرية لحسابهم وبتمويل خاص منهم ، وكان هدف الفرعون الاستراتيجى من هذه الرحلة ، هو اكتشاف طريق تجارى جديد يمر بأغلب شواطىء أفريقيا، خاصـة الغربية بعيدا عن خطر الفرس الذى كان يهـدد الشرق الادنى فى ذلك الوقت ، وكان من مصلحة البحارة الفينيقيين أن يتعاونوا مع هذا الفرعون من أجل استكمال معرفتهم بأفريقيا ، حتى يتمكنوا ربط أسواق غرب أفريقيا بمستوطناتهم فى شمالها (١٥) ، وبذلك يتجنبون المرور فى شرق البحر المتوسط حيث يتعرضون لمضايقات سفن البحارة الاغريق،

ولعل قصد هيرودوت بالفينيقيين هو القرطاجيون ، الذين كانوا أقرب انصالا بمصر وجيرانا لها فى الغرب ، ويرى الاستاذان كارى و ورمنجتون Cary & Warmington أن من الدوافع التى شجعت البحارة الفينيقيين على قبول تنفيذ مشروع الفرعون هو ما سمعوه من التجار العرب عن الذهب الموجود بالقرب من زمبابوى(١٦)٠هذا النجاح الذى حققه الفرعون كان على الاوربيين أن ينتظروا واحد وعشرين قرنا من الزمان قبل أن يقوم « فاسكو دى جاما » بالدوران حول افريقيا عام ١٤٩٧ م ٠

وفى عصر الدولة الصاوية أيضا زادت هجرات المصريين الى أفريقيا ، فقد كانوا يتسللون تلقائيا فى أوقات الضيق والسخط الى الجنوب الافريقى ليستوطنوه ، ويمتزجوا بسكانه ويذوبوا فيهم ، فيروى لنا هيرودوت حكاية طريفة حدثت فى عهد الملك «أبسماتيك الثانى» من ملوك الدولة الصاوية أيضا ، هذا نصها « فى عهد الملك أبسماتيك ، وضعت احدى الحاميات فى مدينة الفانتين فى مواجهة الاثيوبيين ، وأخرى فى دافناى (تل دفنة على مقربة من فرع النيل الشرقى) فى مواجهة العرب والسوريين، وأخرى فى ماريا فى مواجهة ليبيا » ثم يستطرد بعد ذلك قائلا « ظل هؤلاء المصريون يقومون بالحراسة فى الفانتينا ثلاثة أعوام ، ولم يأت أحد لبعفيهم من هذا العمل ، فتشاوروا وقرروا بالاجماع التمرد على « ابسماتيك » والذهاب الى أثيوبيا ، (المقصود باثيوبيا فى المصادر الكلاسيكية هو بلاد النوبة وشمال السودان ، وليس الحبشة التى اتخذت هذا الاسم القديم لها فى العصر الحديث ، ولذلك يقع كثير من الباحثين فى هذا اللبس) ٠ فلما علم الملك بذلك ، اقتفى أثرهم ، وعندما لحق بهم ، حاول كثيرا اقناعهم بالا يهجروا آلهة آبائهم ، وأولادهم ونسائهم، ولكن يقال أن أحدهم أشار الى عورته قائلا اينما وجدت هذه فسيكون لهم أطفال ونساء ٠ ولما وصلوا الى أثيوبيا قدموا أنفسهم الى ملك الاثيوبيين الذى كافأهم كما يلى : اختلف معه بعض الاثيوبيين ، فطلب من المصريين أن يطردوهم ويسكنوا أرضهم ، ولما أقام المصريون بين

الاثيوبيين صار هؤلاء أكثر تمدينا ، وذلك لانهم تطبعوا بالطبـــاع المصرية » (١٧) .

ولقد كانت مصالح مصر فى القرن الافريقى ترتبط دائما بمصالحها فىجنوب غرب الجزيرة العربية ، فقد سبق أن ذكرنا أن أغلب الباحثين يعتبرون بلاد بونت التى كان المصريون يتاجرون معها تشمل المناطق الواقعة على جانبى مضيق باب المندب سواء من الجانب العربى أو الجانب الافريقى بما فى ذلك جزيرة سوقطرة (١٨) ، كما ان التركيب الاثنولوجى للشعب المصرى ووضع مصر الجغرافى جعلها حلقة وصل بين العنصر العربى السامى والعنصر الافريقى منذ فجر التاريخ ، فسكان مصر فى العصر الحجرى القديم الأعلى كانت لهم قرابة مع أجناس شمال غرب أفريقيا ، وفى العصر الحجرى الحديث دخل العنصر السامى ، ثم توالى توافد المهاجرين اليها من الصحارى الأسيوية العربية والتى استقرت فى صحراء مصر الشرقية ، وهذه القبائل هى التى أصبحت حلقة الوصل بين سكان مصر وسكان الجزيرة العربية وبالتالى الشعوب الافريقية ، وبالرغم من أن الهجرات العربية القديمة الى وادى النيل لم تكن شاملة وكافية ، فقد كان أغلب سكان مصر من السلالات الافريقية مع قرابة واضحة بالعناصر الحامية القادمة من غرب أفريقيا عن طريق ليبيا ، الا أن العلماء يخلصون الى وجود اتصال عرقى بين أهل مصر وشعوب أفريقيا وسكان الجزيرة العربية منذ عصر فجر التاريخ (١٩) ، كذلك وأن موقعها الجغرافى جعلها تقـــوم مقام الجسر الذى يربط بين بلاد العرب وأفريقيا ، فقد كانت ممرا لموجات الهجرات من الجزيرة العربية الى الشمال الافريقى وأقدم مثل على ذلك نجده فى هجرة البربر الذين تدل الابحاث على أنهم تحركوا فى العصر الحجرى الحديث من عمان أو اليمن ثم الى القرن الافريقى ، ثم عبر الصحارى المصرية حتى شمال أفريقيا ، حيث اختلطوا بشعوبها الافريقية ، مكونين امتزاجا بين العنصرين الافريقى والعربى فى المجالات الحضارية واللغوية والدينية (٢٠) . ولقد كان الجغرافيون القدماء حتى منتصف

الألف الأول ق٠م يعتبرون قارة أفريقيا جزءا من قارة آسيا ، لكن منذ عام ٥٠٠ ق٠م بدأوا يفصلون بين هاتين القارتين ، فجعلوا صحراء مصر الشرقية أى الواقعة الى الشرق من النيل هى الحد الفاصل بين قارتى آسيا وأفريقيا (٣١) ، فمثلا يعتبر هيرودوت هذه الصحراء ليست جزءا من مصر بل جزءا من الجزيرة العربية ، فقد أطلق على خليج السويس اسم الخليج العربى ، وجعله الحد الفاصل بين أفريقيا وبلاد العرب (٣٢) ٠

بدأ دور دول الجزيرة العربية على الساحة الدولية منذ القرن الحادى العاشر ق٠م عندما تدهورت القوتان العظميان فى الشرق الادنى وهما مصر وبلاد الرافدين ، وعلى اثر ذلك أخذت دويلات صغيرة فى جنوب شبه الجزيرة فى الازدهار الاقتصـادى معتمدة على التجـارة الشرقية والافريقية ، كما ورث الفينيقيون فى الشمال القوة البحرية المصرية فى البحر المتوسط (٣٣) ، وأخذوا ينتشرون بحريا فى غرب البحر المتوسط وساحل شمال أفريقيا حيث أقاموا عددا من المستوطنات ، أهمها مستعمرة أوتيكا فى تونس وذلك فى أواخر القرن التاسع قبل الميلاد وكذلك مستعمرة « كريات حداشت » أى « القرية الحديثة » والتى عرفت عند الرومان قرطاجة ٠ واختلط المهاجرون من ساحل الشام بالسكان البربر والافريقيين مكونين عنصرا جديدا هو العنصر البونيقى والذى يجمع بين الدم السامى والدم الحامى ٠ ولقد كان هم القرطاجيين الأول هو البحث عن أسواق جديدة ومناطق انتاج المواد الخام ٠ وقد استغلوا موقعهم وبـدأوا يتاجرون مع الشعوب الافريقية جنوب الصحراء وأقاموا طرقا تجارية معهـا ، ولقد روى هيرودوت خبر رحلة قام بها خمسة رجال من جنوب ليبيا وكيف توغلوا فى الاراضى الافريقية حتى وصلوا الى مدينة تجارية تقع على نهر عظيم ، ورغم أن هيرودوت اعتقد خطأ أن هذا النهر هـو أحد فروع نهر النيل ، لكنه كان على ما يبدو نهر النيجر ، وربما كانت هذه المدينة مدينة تمبكتو الافريقية الشهيرة فى نيجيريا (٣٤) ٠ ولقد رصد الاثريون طريقين رئيسيين للتجارة القديمة بين شمال أفريقيا ووسطها ،

أولهما يبدأ من جرمه (فزان) ويمر بمستوطنة لبدة البونيقية Leptis Magna ثم غدامس ، أما الطريق الثانى فيبدأ أيضا من جرمة مارا بقرى « هون » و « بونجيم » حتى ينتهى عند لبدة . وكانت قوافل القرطاجيين تقطع هذين الطريقين حاملة أشهر منتجات أفريقيا الى أسواق البحر المتوسط (٢٥) ، فقد أصبح ميناء اوستيا الرومانى فيما بعد مركزا لتلقى المنتجات الافريقية (٢٦) ، وكانت القوافل تعود الى قبائل جنوب الصحراء الافريقية محملة بالسلع القادمة من عالم البحر المتوسط مثل الزجاج والملح والنبيذ والقمح (٢٧) والتى عثر على بعضها فى مقابر « جرمة » .

ولقد اتسمت علاقات المستوطنين الفينيقيين مع القبائل الافريقية بالتعاون ، فقد ذكر هيرودوت أنهم تعاونوا مع قبائل « الماكاى » الافريقية للهجوم على المستوطنات الاغريقية فى ساحل شمال أفريقيا حوالى عام ٥١٧ ق.م (٢٨) كما أدى ازدهار « قرطاجة » الى اقامة المزيد من المستوطنات فى شتى أجزاء الشمال الافريقى مثل لبدة واويا وصبراته اللائى كانت توابع لقرطاجة ، وكان من نتيجة ذلك تطور طرق الزراعة بين الافريقيين ، فقد ادخل الفينيقيون المهاجرون معهم أنواعا جديدة من الفاكهة والمحاصيل ، واهتموا بزراعة الزيتون ، كما اهتموا بهندسة الرى وبناء السدود لحجز مياه الامطار ، كل ذلك طور الحياة الاقتصادية والزراعية والحضرية فى أفريقيا ودفعها قدما الى الامام .

وفى القرن الخامس ق.م كانت الاسرة الصاوية قد سقطت بفعل تعاظم قوة الفرس الذين اكتسحوا الشام ومصر وجزءا من شمال أفريقيا ، ولقد تعاون الفينيقيون مع الفرس ، فكلاهما معاد للاغريق وأصدقائهم المصريين ، وكان ذلك من أسعد أيام الفينيقيين فقد حقق الفرس لهم مظلة من الحماية ، ومن ثم شهد القرن الخامس نشاطا بونيقيا غير معهود فى التجارة مع أفريقيا السوداء . وكنا قد رأينا كيف أن الفينيقيين تعاونوا مع الملك نخاو فى القرن السادس فى القيام برحلة بحرية حول أفريقيا ، لان مصر كانت لاتزال القوة البحرية الكبرى فى شرق البحر المتوسط ،

والآن وبعد ان دهمها الفرس وحولوها الى مجرد ولاية من ولاياتهم ، أصبح الطريق مفتوحا أمام الفينيقيين للاستفادة العملية من نتائج رحلة الدوران حول أفريقيا ، اذ شهد القرن الخامس ق٠م رحلات بحرية كبرى قام بها القرطاجيون الى سواحل أفريقيا الغربية ، فيروى أن البحار الفينيقى حانون Hano — كما جاء فى الترجمة الاغريقية لنص فينيقى كان محفوظا فى معبد « بعلحامون » فى قرطاجة — قد أبحر حول الساحل الافريقى وربما وصل الى خليج غينيا ، ويرى البعض أن رحلة « حانون » قد توقفت عند سير اليون الحالية ، بينما يرى آخرون أنها توقفت عند الجابون أو الكاميرون (٢٩) • ويروى الكاتب الاغريقى آثينايوس Athenaeus بشىء من المبالغة قصة رجل قرطاجى اسمه ماجو Mago عبر الصحراء الافريقية ثلاث مرات دون أن يتذوق طعم الماء (٣٠) ، وهذا رمز لنشاط المدن البونيقية فى شمال افريقيا فى عبور الصحراء الكبرى الى قلب أفريقيا السوداء للتجارة ، وبفضل هذه الرحلات البحرية اكتشف البونيقيون جزر ماديرا Madeira وجزر الكانارى والازور القريبة من ساحل أفريقيا الغربى (٣١) ، ولم يكتفوا بتوصيل منتجات أفريقيا الى أوروبا ، بل أوصلوها الى الحجاز اذ يذكر موسكاتى أن مدينة « دادان » (العلا) كانت مركزا لنقل البضائع الافريقية التى يجىء بها الفينيقيون ، خاصة جلود الماشية والعاج والابنوس وسروج الخيول (٣٢) •

وأغلب الظن أن قبائل البربر — أسبق الفصائل العربية التى هاجرت الى شمال أفريقيا وقبل الفينيقيين بكثير — كانت همزة الوصل بين القرطاجيين والافريقيين السود • فقد كانت بعض قبائل البربر قد هاجرت من شمال أفريقيا الى أفريقيا جنوب الصحراء وتاجروا مع القبائل الافريقية من الزنوج ، فلقد أدرك البربر مدى حاجة الزنوج الافارقة الى ملح الطعام باعتباره مادة هامة فى حفظ الطعام وتخزينها ، ولهذا تولى البربر اقامة الملاحات فى شمال الصحراء الوسطى ، وأصبح الملح سلعة أساسية يبادلونها

بالذهب والرقيق ، الذين كان البربر يستخدمونهم فى استخراج المزيد من الملح ، ولقد كان الاعتماد على دواب القوافل التى جاء بها البربر الى جنوب الصحراء سببا فى تعليم الزنوج المشتغلين بالزراعة فى السودان الغربى فن المعاملات التجارية ، بل وفى تطوير مجتمعاتهم الى نوع من التنظيم السياسى ، وكانت نقطة تلاقى البربر والزنوج هى نهر النيجر فى الطرف الجنوبى من الصحراء ، ولقد أثبت علماء الآثار وجود مقار للتجار البربر فى قرى غانا . وفى حين سيطر المزارعون الافارقة على مفارق الطرق التجارية ، أدار البربر مراجل اعداد الملح ، وكانوا يطلقون على الطريقة التى يتم بها تبادل الذهب بالملح اسم التجارة الصامتة ، حيث كان رجال القبائل الافريقية المشتغلون باستخراج الذهب من المناجم ، يتركون خام الذهب عند حافة نهر النيجر ثم يعودون ادراجهم ، عندئذ يكون التجار البربر قد كدسوا أكوام الملح بجانب الذهب ، ثم يأتى الافارقة فيأخذون الملح ويتركون الذهب اذا راءوا أن الصفقة عادلة ، أما اذا تراءى لهم أن كمية الملح المقدمة من التجار البربر لا تساوى ما قدموه من ذهب ، فأنهم يتركون الملح ، وتستمر المحاولات حتى يرضى الطرفان بالصفقة (٣٣) . ولقد ذكر بعض الرحالة من تجار العرب فى القرن العاشر الميلادى أنهم سمعوا من بعض الرواة السودانيين أن « بعض البيض كانوا يحكمون وادى النيجر فى الفترة ما بين القرنين الخامس والثامن الميلادين ، ثم أتى بعد ذلك حاكم من قبيلة الماندى أو المانجدونجو يدعى سونينكى مؤسس اسرة حاكمة زنجية » مما يؤكد توغل التجار العرب والبربر الى أفريقيا السوداء قبل الاسلام وبعده (٣٤) . وقبل أن ينشر البربر المسلمون الدين الاسلامى بين القبائل الافريقية جنوب الصحراء بكثير ، قام البربر والقرطاجيون بأدخال المعتقدات الدينية القرطاجية الى مملكة غانا الزنجية (٣٥) .

عاد النشاط المصرى فى أفريقيا مرة أخرى بعد توقف دام أكثر من قرنين تقريبا منذ سقوط الاسرة الصاوية وحتى قيام الاسرة البطلمية ،

فلقد شهد مطلع حكم البطالمة حركة كشوفات جغرافية وعلمية مكثفة لسواحل البحر الاحمر الجنوبية ، يواكبها حركة كشوفات برية لاكتشاف الطرق المؤدية الى أعماق أفريقيا عن طريق تتبع نهرى عطبرة والنيل الازرق الى هضبة الحبشة (٣٦) • فقد كان البطالمة حريصين على اقامة دولة قوية وعصرية تتربع على عرش الممالك الهللينستية ، ومن ثم كانوا فى حاجة ماسة الى الحصول على المواد الاستراتيجية مثل الحديد والنحاس والمعادن الثمينة مثل الفضة والذهب ، الى جانب الاخشاب وسن العاج ، وحرصوا على أن يكون الميزان التجارى لصالحهم فكانوا يصدرون الى مناطق أفريقيا السوداء الحاصلات الزراعية والمصنوعات المصرية ، ومن ثم لعبت أفريقيا دورا هاما فى السياسة الخارجية للبطالمة (٣٧) • فقد كانت أفريقيا منشأ ومصدر الفيلة التى لعبت دورا هاما فى تسليح الجيش المصرى وفى التكتيك الحربى لجيوش العصر الهللينستى ، وكان حرص البطالمة فى الحصول على الافيال الافريقية هو رد على استعدادات منافسيهم السليوقيين فى الشام والعراق الذين كانوا يجدون فى الهند معينا لا ينضب من الافيال الجيدة ، وازاء هذا التحدى لم يجد البطالمة غير الاعتماد على الفيلة الافريقية وترويضها ، برغم أن كفاءتها القتالية لاترقى الى مستوى كفاءة الافيال الاسيوية • ولقد كان تتبع روافد النيل هو أيسر الطرق وأسهلها للوصول الى غابات أفريقيا ، وتدريب القبائل الافريقية على طرق صيدها ، ومكافأتهم مكافآت مجزية نظير ذلك العمل ، ومن ثم عاد ذلك بالرخاء على القبائل الافريقية ، الى جانب ذلك فأن البطالمة أمنوا طرق مواصلاتهم البرية مع النوبة ، وبعثوا بعلماء الجغرافيا وخبراء بناء الموانى لاختيار عدة مواقع لانشاء مراكز عسكرية تتجمع فيها الفيلة قبل شحنها فى ناقلات خاصة الى مراكز التدريب فى منف • وكان بطليموس الثانى بالذات من أنشط ملوك هذه الاسرة فى ذلك الصدد ، فقد بدأ حكمة بحملة عسكرية على كوش على طريقة ملوك الفراعنة العظام الذين حاول التشبه بهم ، اعقب هذه الحملة ارسال سفارة للتفاوض على شروط صلح

يضمن مصالحهم هناك ، وكان ذلك بقيادة قائد اسطوله تيموستنيس Timothenes ، وقد أمن ذلك للبطالمة ساحل الصومال (٣٨) • ولقد نجحت هذه السياسة فى فتح الطرق الى مناطق صيد الافيال ، ولتوكيد وجودهم أقام البطالمة عددا من النقاط العسكرية والمراكز التجارية المحصنة على طول ساحل البحر الاحمر الافريقى فى المنطقة الواقعة الى الشمال من باب المندب ، ومن أهم هذه النقاط جزيرة ستراتون (Straton) وحصن ديمتريوس (Demetrius) ومذبح كانون (Canon) ونقطة حراسة كورهاجوس (Corrhagos) وميناء اتيفيلوس (Antiphelos) ومدخل يوميديس (Eumedes) ، ويلاحظ أن أسماء هذه المواقع القديمة كانت مشتقة من أسماء القادة العسكريين والرواد المكتشفين لها ، وعلى ساحل التروجلوديت (ساحل الصومال وبربرة) ، أسس أحد قواد بطليموس الثانى ميناءين آخرين ، هما ميناء « بطوليمايس Ptolemaiis لصيد الافيال (Ptolemaiis Epitheros) بالقرب من ميناء سواكن ، والذى أصبح فيما بعد من أشهر موانىء أفريقيا ، وميناء بطليموس ثيرون Theron بالاضافة الى عدد من الحصون ونقاط الدفاع مثل حصن سوتيراس ليمن (Soteras limen) (ميناء الخلاص) ، وحصن فيلوتيرا (Philotera) (٣٩) ، فلقد كان بطليموس الثانى من أشد البطالمة حرصا على تعبئة الجيش وتسليحة بفيالق الافيال — مدرعات العصور القديمة — التى تبث الرعب بين جنود العدو ، ومن أجل ذلك أحكم قبضته على ساحل شرق أفريقيا ، ومنطقة الظهير المواجه لها حيث الغابات الاستوائية ، وكانت هذه الافيال تنقل فى سفن خاصة كبيرة وقوية تمخر البحر الاحمر شمالا حتى القاعدة العسكرية المصرية فى برنيكى (Berenike) وهى مرسى تقع الى الشرق من مدينة أسوان الحالية (مكانها الآن مدينة « الهراس ») (٤٠) ، ثم تساق الافيال فى قوافل مسلحة عبر طرق صحراء مصر الشرقية الى الميناء النيلى عند قفط Coptos (٤١) • حيث تنقلها سفن نيلية خاصة الى معسكرات التدريب فى صحراء منف •

ومن الواضح أن بطليموس الثانى لم يكن يهدف فى سياسته الافريقية الى تحقيق التفوق العسكرى على اعدائه فى الشرق الادنى فحسب ، بل كان يهدف أيضا الى تحقيق التفوق الاقتصادى على كافة ممالك العصر الهللينستى فى الشرق والغرب ، فقد نجح بفضل هذه السياسة الى احتكار سوق العاج الدولية ، التى أصبح يتحكم فى أسعارها . حتى الاقتصاد سخره بطليموس الثانى لتوجيه ضربات اقتصادية لاعدائه ، فمثلا قام بأغراق السوق الدولية بفيض من سن الفيل الافريقى فيما بين أعـوام ٢٦٤ ــ ٢٥٠ ق.م بما أدى الى انخفاض سعره فى أسـواق ديلوس ، وذلك رغبة منه فى الحاق الكساد الاقتصادى بمنافسيه السليوقيين ، الذين كانوا يحتكرون هذه السلعة عن طريق جلبها من الهند ، وكانت تدر عليهم دخلا هائلا يساعدهم فى تفقات الحرب (٤٢) ، ويتضح مدى الاستغلال المكثف للعاج الافريقى وثروات افريقيا المختلفة فى عهد ذلك الملك فيما جاء فى وصف الكاتب النقراطيسى أثينايوس Athenaeus لاحتفالات أعياد الديونيسيا Dionysia التى أقامها فى الاسكندرية ، فذكر هذا الكاتب أنه ظهر فى موكب العرض أربعة وعشرون فيلا ، وأربعة عربات يجر كل منها زوج من النعام ، كما ظهر فى هذا العرض أيضا عدد من الافارقة الكوشيين يحملون ستمائة قطعة من سن الفيل وخشـب الابنـوس ، بالاضافة الى تشكيلة كبيرة من مختلف أنواع وفصائل الطيور والحيوانات الافريقية الغريبة ، وذلك بهدف اعلام الشعب بمدى نجاح سياسته فى أفريقيا ، وقد تغنى شاعر العصر الهللينستى الكبير بمجد بطليموس الثانى فذكر أن ممتلكاته شملت أجزاء من بلاد اليونان وآسيا الصغرى وأفريقيا وبلاد العرب (٤٣) ، ونلاحظ أن كلمة أفريقيا جاءت مقرونة مع كلمة بلاد العرب ، وبالتالى أوجد بطلموس ساحة للتعارف والتعاون بين الافارقة والعرب تحت التاج المصرى .

واذا كانت سياسة بطليموس الثانى فيلادلفوس تجاه أفريقيا هى تسخير مصادرها لخدمة جهاز الحرب ، فأن سياسة خلفه بطليموس الثالث

تتسم بالاستغلال الاقتصادى البحت ، خاصة فى النصف الاخير من حكمه ، الذى يتسم بالسلام والتعمير ، وتتلخص سياسته فى استغلال مصادر غابات أفريقيا والمواد الخام فى مناجمها ، كما تتمثل فى الضغط المعنوى والنفسى على زعماء القبائل الافريقية وحكامها لفتح مناطقهم أمام التجار وصائدى الافيال المصريين ، وتسهيل اقامة مهمة العلماء ورسامى الخرائط والمستكشفين والرحالة ، وتأمين حمايتهم » ، فى مقابل السماح للمهندسين والعمال والحرفيين المتخصصين فى بناء المعابد المصرية وزخرفتها بالعمل فى النوبة الكبرى من أجل تعميرها بالمعابد المصرية . ونتيجة لسياسته الافريقية الناجحة ، كثرت فى عهده منتجات أفريقيا فى الاسكندرية (٤٤) ، وأصبحت الطرق البرية والبحرية بين مصر وأفريقيا مؤمنة للمسافرين ، ولقد ارسل هذا البطليموس مستكشفا اسمه « سيمياس » (Simmias تلاه آخر يدعى « ليخاس » Lichas وذلك لاكتشاف ما تبقى من مجاهل الساحل الصومالى ، ورصد مناطق جديدة لصيد الافيال وجمع العاج(٤٥)، ويؤيد ذلك كثرة النقوش الاغريقية (لغة مصر الرسمية فى عصر البطالمة) التى كتبها صائدو الافيال والمستكشفون فى هذه المناطق ، ونظرا للتوسع فى النشاط الافريقى رأى بطليموس الثالث أن يضيف ميناء مصريا جديدا الى موانىء مصر على ساحل الصومال ، وهو ميناء برنيكى الذهبى (Berenike) والذى يقترح البعض أنه ميناء عدول (Adulis) المواجه لجزيرة العرب ، والذى يقع بالقرب ميناء مصوع الحالى . وقد أصبح ميناء عدول منذ ذلك الوقت وحتى هجرة المسلمين الاولى الى الحبشة (٤٦) ، المنفذ الاول للحبشة مع العالم الخارجى ، ومركز تجميع العاج (٤٧) ، وربما أقام بطليموس الثالث أيضا كولوئى Koloe (ميناء كوهايتو الحالى فى الحبشة) والذى تدل ملامح المكتشفات الاثرية فيه على أنه منشأة بطلمية . ولقد أدت دقة اختيار هذه المواقع بطريقة علمية الى ازهارها وتحولها الى حواضر عامرة بالسكان ، ومنارات حضارية تشع الحضارة الى القارة السوداء . ولقد وصل العمران المصرى فى عصر

بطليموس الثالث حتى رأس غواردافوى فى القرن الافريقى عند أقصى جنوب البحر الاحمر • ومن بين الحواضر العامرة التى أسسها بطليموس الثالث عددا من المدن حملت ثلاث منها اسم زوجته برنيكى ، ولقد تغلب بطليموس الثالث على مقاومة قبائل « البجة » وحلفائها للتوسع المصرى ، وكذلك على صعوبة الملاحة النهرية باتباع طريق البحر الاحمر لكى يصل الى الاصقاع البعيدة فى جنوب شرق الحبشة وبلاد الصومال (٤٨) • وفى ضوء ذلك لاحظ الاثريون تزايد التأثيرات المصرية الملكية فى البلاط المروى ، وأصبح ملوك النوبة يقلدون ملوك مصر فى حمل الالقاب البطلمية (٤٩) تماما مثلما فعل ملوك مدينة دادان العربية فى الحجاز حيث حمل أربعة أو خمسة من هؤلاء الملوك اللحيانيين لقب طولماى (الصيغة المعربة للفظ بطليموس) (٥٠) ، ووصلت هذه العلاقات بين ملكى مصر والنوبة الى ذروتها فى عصر بطليموس الرابع ، حين تعاون الملكان معا فى بناء معبدى فيلة ودكة ، والى بطليموس الرابع يعزى أيضا بناء حاضرة جديدة هى مدينة ارسينوى Arsinoe القريبة من باب المندب (٥١)•

ولقد اتخذت سياسة مصر الافريقية أبعادا جديدة عقب هزيمتها على أيدى السليوقيين ، وضياع ممتلكاتها فى جنوب الشام عام ١٩٨ ق•م فى عهد البطليموس الخامس ، فقد كانت هذه الهزيمة نقطة تحول فى سياسة البطالمة الذين كانوا يولون من قبل وجوههم شمالا لبناء الامبراطورية فى الشرق الادنى وآسيا الصغرى وحوض البحر المتوسط وتسخير موارد أفريقيا لتحقيق ذلك الهدف •

أما بعد هذه الهزيمة فقد تحولت مصر الى أفريقيا ، وكان الدرس الذى تعلمه البطليموس الخامس أنه لا جدوى للافيال الافريقية فى الحرب ، فقد ثبت فشلها فى مواجهة الفيلة الاسيوية ، كما أن الانكماش فى الممتلكات المصرية فى جنوب الشام قابلة توسع فى أفريقيا لتعويض الارض المفقودة ، ومن ثم كثف البطالمة منذ عصر البطليموس الخامس نشاطهم فى ارسال البعثات الاستكشافية والعلمية لاكتشاف المزيد من

المجاهل الافريقية ، ولقد شهد عهد البطليموس السادس بناء عدد جديد من المدن فى أفريقيا وسواحلها ، ولاول مرة يتخذ التوسع البطلمى الصفة الاستيطانية الدائمة ، بعد أن كانت مناطق اقامة وعبور مؤقت تنتهى بانتهاء الغرض المطلوب ، فقد تحولت مراكز صيد الافيال الى قلاع عسكرية دائمة لحماية المستوطنين والممتلكات وتأمين الطرق التجارية ، وقد جاء فى نقش يرجع الى عصر بطليموس السادس أن جميع بلاد كوش بما فيها نباتا ومروى كانت تدفع الجزية للتاج المصرى وأهمها العاج والذهب .

غير أن السفينة الملكية البطلمية بدأت تواجه عواصف وأمواج وأنواء مقلقة فى البحر المتوسط منذ القرن الاخير قبل الميلاد ، عندما بدأ النفوذ الرومانى يزحف على مصر تدريجيا ، سالبا اياها ما تبقى لها من ممتلكات خارج أراضيها ، فقد سلبها قورينى ثم قبرص ، ومن ثم جاء تعويض هذه الخسائر بزيادة النشاط فى أفريقيا ، وللحصول على أموال تعوض الاستنزاف الاقتصادى الرومانى الدائم لمصر ، وربما من العدل أن نقول أن توسع مصر فى أفريقيا فى عهد البطالمة المتأخرين هو توسع هروبى الى الجنوب من السيطرة الرومانية القادمة من الشمال ، ولم يشمل التوسع أفريقيا فقط ، بل أيضا جزيرة سوقطرة المتاخمة للساحل الجنوبى الغربى للجزيرة العربية ، فقد ارسل بطليموس الحادى عشر (٨٠ ــ ٥١ ق.م) الى تلك الجزيرة حملة لاستيطانها استيطانا دائما ، وبقى هؤلاء المستوطنون المصريون الى ما بعد الفتح الاسلامى (٣٢) .

وقد واكب هذا النشاط البطلمى المتأخر فى السياسة الافريقية ، تزايد أعداد الافريقيين والكوشيين فى مصر منذ عهد بطليموس الخامس ، وزاد تدفقهم على المدن المقدسة ، خاصة مدينة طيبة ، التى كانوا يحجون اليها لزيارة معبد آمون رع ، ذلك الرب المصرى الذى عبده الافريقيون بشغف، وتشير الادلة الى أن هؤلاء الكوشيين كانوا وراء الحركات القومية المصرية ، التى قامت فى هذه العاصمة المقدسة مطالبة بعودة طيبة الى مجدها ، وتحررها من سيطرة الاسكندرية وحكامها المقدونيين ، ولقد

بذل بطليموس الخامس جهودا مضنية للقضاء على ثورة طيبة الوطنية . وفى الاسكندرية تدل الشواهد الاثرية على تزايد أعداد الافريقيين حتى أصبحوا يشكلون قطاعا سكانيا وحرفيا عريضا فى مجتمع الاسكندرية ، فكانوا يعملون فى الميناء كحمالين ، وفى البيوت كخدم ، ومربيين ، وحملة مصابيح لدى الاسر الموسرة ، فيذكر آثينايوس أن السمار فى مجلس الملكة كليوباترا كانوا يعودون الى بيوتهم ليلا يرافقهم حملة المصابيح النوبيون يضيئون لهم الطريق (٥٣) ، كما عمل الافريقيون كمصارعين ومهرجين ولاعبى أكروبات فى السيرك ، كما عملوا كمغنيين وراقصين فى المسارح الهزلية والبهلوانية ، ومن بين فئات الافارقة الذين اجتذبتهم المدن المصرية وخاصة الاسكندرية طلاب العلم والمعرفة ووصل بعضهم الى مناصب رفيعة ووضعت لهم تماثيل من البرونز والبازلت . ومن تماثيل متحف الاسكندرية الخاصة بالافريقيين يؤكد برتشيا Breccia مدى تزايد العنصر الافريقى فى الاسكندرية فى العصور البطلمية المتأخرة ، وعن طريق الاسكندرية أنتشر العنصر الافريقى فى بلدان البحر المتوسط ، ويلاحظ أن هذا الانتشار يتزامن مع انتشار عبادة ايزيس فى بلدان البحر المتوسط ، حيث كانوا يعملون كهنة فى معابدها باعتبارها ربة أفريقية سوداء ، بل أصبحت صورة الافريقى وملامحه وشعره الاجعد موضوعا مستحبا لدى فنانى العصر الهللينستى (٥٤) ، وجدير بالملاحظة أيضا أن العنصر العربى انتشر أيضا فى مناطق النفوذ المصرى فى حوض البحر المتوسط حيث عثر على نقوش عربية جنوبية مقدمة لآلهة عربية قديمة فى جزيرة ديلوس والتى كان نفوذ البطالمة فيها قويا (٥٥) .

وكما لعبت مصر دورا ثقافيا بين الافارقة والعرب من جانب ، وبين أوروبا من جانب آخر ، فقد لعبت أيضا دور الوسيط التجارى ، فقد أفادت الموانىء التى أقامها البطالمة على سواحل افريقيا وفى جزيرة سوقطرة فى تنشيط التجارة العالمية ، فقد وجدت قصاصة من البردى تشير الى أول اتحاد تجارى عالمى فى العالم القديم بين بلاد البهار وبلاد الصومال وترجع الى النصف الاول من القرن الثانى قبل الميلاد (٥٦) .

وكما تعرضت سياسة مصر الافريقية لنكسة بعد سـقوط الاسرة الصاوية ، تعرضت لنكسة بعد سقوط الحكم البطلمى على أيدى الاحتلال الرومانى ، بل أن الرومان على أثر فتحهم لمصر حاولوا غزو بلاد العرب السعيدة ، ومن قبل حاولوا التوسع فى أفريقيا واشتبكوا فى حرب ضروس مع ملوك النوبة (٥٧) ، واكتفى الرومـان بفرض نفـوذهم السياسى والاقتصادى على افريقيا وبلاد العرب فى وقت واحد ، ولم يفكر الرومان بعد ذلك بالتضحية فى فتوحات صعبة وارسال جنودهم الى بلاد غريبة المناخ والتضاريس ، غير ان الرومان شغفوا حبا باستكشاف منابع النيل ، ففى عهد نيرون بعثوا ببعض المستكشفين عام ٦٦م لاكتشاف منابع النيل ووصل هؤلاء الى مستنقعات وأحراش النيل الابيض جنوب الخرطوم الحالية ، غير أن هذه الاحراش والمستنقعات أعاقت أى رحلة استكشاف أبعد منها ، وبقى طريق ساحل البحر الاحمر أيسر الطرق الى قلب افريقيا حيث تسلل المستكشفون والتجار ، وبذلك عرف الجغرافيون المزيد عن جبال القمر (وربما جبال كلمنجارو و روينزورى Rwenzori) وعن بحيرات النيل (فكتوريا وألبرت نيانزا) فى وسط أفريقيا الاستوائية (٥٨).

ففى أواسط القرن الثـانى الميلادى تحـرى بطليمـوس الجغرافى السكندرى نهر النيل ورسم خريطة له ، حيث وصف النيل حتى مروى (بين الدامر وشندى) ، كما وصف نهر عطبرة ، والنيلين الازرق والابيض، وتحدث عن منابع النيل ، وذكر أن هناك بحيرتين عظيمتين يخرج من كل منهما نهر ، ويتحد هذان النهران عند خط عرضى ٢ شمالا ، كما أوضح بطليموس الجغرافى الفرق بين البحيرات الاستوائية التى ينبع منهـا النيـــل الابيض وبحيرة كلوى Koloê (تانا) والتى ينبع منها النيل الازرق ، كما اشار الى جبال شاهقة فى جنوب منابع النيل تغطيها الثلوج ، والتى يعتقد البعض أنها جبال كينيا وكليما نجارو،الواقعة جنوبى وشرقى بحيرة فكتوريا . وسواء قام بطليموس الجغرافى بزيارة الى منابع النيل ، أم استقى معلوماته من مؤلف آخر ضاعت كتاباته ، التى اعتمد فيها على

ما سمعه من التجار السكندريين ، الذين ذهبوا الى ساحل أفريقيا الشرقى فان معلومات بطليموس وخرائطه ، ظلت هى المرجع الاكبر لدراسة أفريقيا وبقيت كذلك حتى عصر النهضة والكشوف الجغرافية الاوربية الحديثة .

وبالرغم من أن الاحتلال الرومانى فى مصر سلب مصر حريتها السياسية والعسكرية ، اذ لم تعد العاصـمة فى طيبة ، أو سـايس (صالحجر) أو الاسكندرية ، بل أصبحت العاصمة فى روما ، وتحولت الاسـكندرية — عاصمة الامبراطورية البطلمية ومقر قصر البطليموس — الى احدى المدن الاقليمية التى تعج بها الامبراطورية الرومانية ، غير أن العلاقات على مستوى السكان العاديين بين مصر وأفريقيا وبلاد العرب لم تتوقف ، فقد حقق السلام الرومانى مظلة أمن لجميع شعوب الامبراطورية ورعاياها ، وضمن لهم حرية الحركة والتجارة ، كما أن هجرة المصريين فى أوقات السخط والضيق والاضطهاد الى أفريقيا لم تتوقف ، اذ يتضح من دراسة المنشآت المعمارية فى النوبة فى العصر الرومانى أن العلاقـات المصرية الافريقية الحضارية أستمرت نشطة فى مجال حركة احياء التراث المصرى الفرعونى ، فقد كان الحرفيون المصريون يتنقلون بحرية بين مصر والجنوب الافريقى دون تدخل أو اعتراض من السلطات الرومانية ، ومن ثمار هذه العلاقات الحضارية مجموعة الاهرامات الملكية فى البرقل بالنوبة والتى ترجع الى مطلع القرن الاول الميلادى (٥٩) ، كما حاول الرومان ارضاء الجاليات الاثيوبية فى مصر ببناء المعابد لالهتهم ، فقد شيد الامبراطور أغسطس معبد كلابشة للرب النوبى مندوليس ، كما رمم معابد دبود ودندرة ودكة فى النوبة من أجلهم أيضا .

وكما كانت مصر هى المنجم الروحى لافريقيا فى عصور الوثنية ، أصبحت كذلك أيضا فى العصور المسيحية ، فعندما تأسست المدرسة اللاهوتية فى القرن الاول الميلادى فى الاسكندرية أخذت هذه المدرسة ترسـل البعثات التبشيرية الى مختلف الاصقاع الافريقية ، وتحولت طيبة من

كعبة لآمون الى المركز الاول لنشر المسيحية فى أفريقيا فى النوبة السفلى حيث أقيم عدد من الاديرة ازداد عددها فى القرن الثالث الميلادى ، وعندما عانى نصارى مصر مر الاضطهاد الوثنى الرومانى ، هربوا الى النوبة العليا ، كما كانت الواحــة الخارجة من أهم المراكز المســيحية المبكرة ، فقد أتاح موقعها الجغرافى للمبشرين المصريين فرصة للاتصال بالقبائل الافريقية جنوب الصحراء ، وليس من المســتبعد أن يكون التجار المسافرون على درب الاربعين الذى يمر بواحــة الخارجة ، قد مهدوا لنصارى المصريين طريق النجاة الى الحبشة (٦٠) ، ومن ثم كان لمصر الفضل فى أن تكون أول دولة ادخلت المسيحية الى الافريقيين ، اذ تذكر المصادر المسيحية أن القديس « آنى » اسقف الاسكندرية قد عمد بعض الاثيوبيين ورسمهم كهنة ، كما قام المبشر السكندرى واسمه فرمنتيوس Fermentius بنشر المسيحية فى الحبشة حوالى عام ٣٣٠ م وعينة الاحباش العــرب مطرانا على الحبشة ولقبوه « أبا سلامة » ــ كما سنرى فيما بعد ــ وخلاصة القول أن مصر كانت المنجم الروحى لافريقيا سواء فى عصور الوثنية أو المسيحية أو الاسلام .

لعبت منطقة القرن الافريقى دورا كبيرا فى التقاء المصريين والعرب بالافارقة ، فكما رأينا أن المصريين سعوا الى هذه المنطقة منذ عصور الدولة القديمة كما سعوا فيما بعد الى سواحل الجزيرة العربية ، واجتمع العنصر العربى والعنصر الافريقى تحت تاج البطالمة ، ومهد البطالمة شرق أفريقيا حضاريا وعمرانيا لاستقبال المهاجرين ، والذين كان على رأسهم عرب جنوب الجزيرة ، غير انه من الحق أن نقول أن عرب الجزيــرة عرفوا طريقهم الى شرق أفريقيا منذ الالف الاول ق.م ، اذ لم يكن البحر الاحمر عائقا لاتصال شعوب سواحل جنوب الجزيرة بسواحل شرق أفريقيا ، اذ لا يزيد اتساع هذا البحر على المائة والعشرين ميلا عند السودان ، ويصبح ضيقا جدا عند باب المندب ، فضلا عن وجود جزيرة سوقطرة التى لعبت دور الجسر بين الجزيرة العربية وسواحل

أفريقيا ، مما سهل على السلالات العربية ان تعبر البحر عبر ارتريا الى القارة الافريقية طلبا للرزق والتجارة (٦١) ، وكانت أقدم القبائل العربية هجرة الى أفريقيا هى قبيلة « حبشت » ، والتى منها أخذت الحبشة اسمها العربى واسمها الاوروبى Abyssinia ، ويرجح أن الهجرة الاولى لهذه القبيلة تمت حوالى عام ١٠٠٠ ق٠م على عهد الدولة المعينية والتى تشهد كل الظواهر الاثرية أنها كانت على علاقة ممتازة بمصر منذ أيام الفراعنة (٦٢) وان كانت هذه العلاقة وصلت الى ذروتها فى العصر البطلمى (٦٣) ٠

ويلاحظ علماء التاريخ القديم المقارن أنه فى الوقت الذى بدأت فيه الممالك العربية الجنوبية تنشط سياسيا وتزدهر تجاريا ، كانت أيام الامبراطورية المصرية الفرعونية قد ولت ، وانهارت الهيمنة البحرية المصرية على البحر الاحمر ، مما أطلق العنان لعرب جنوب الجزيرة لجنى الثمار التى زرعها المصريون فى شرق أفريقيا ، والتوسع فيها ، وملىء الفراغ الناتج من غياب القوة المصرية فى البحر الاحمر — كما فعل الفينيقيون فى البحر المتوسط ، ولقد ورث عرب الجزيرة رسالة مصر فى تطوير شرق أفريقيا ثقافة وعنصرا ، وأقاموا نظاما تجاريا ، وتنظيما تعامليا ، لايقل فى كفاءته عن النظم التى أقامها المستوطنون الفينيقيون فى شمال أفريقيا ، بل وامتد التأثير الحضارى العربى الى وسط أفريقيا ، فقد نجح السبئيون فى تكوين أسطول بحرى ، وتفوقوا فى فن الملاحة ، وازدهرت موانيهم مثل عدن ، والموزاء (مخا) ، وموشا (خور ريرى) ، وقنا (كانا) ، كما عرف العرب السبئيون مواقيت واتجاهات هبوب الرياح الموسمية ، واستفادوا من ذلك فى الابحار بسفنهم على طول سواحل شرق أفريقيا ، وجزر البحر الاحمر ، ونجحوا فى الدوران حول القرن الافريقى الى ما بعد رأس عواردافوى ، ووصلوا الى مكان زنزبار ودار السلام ورأس دلجادو وموزمبيق ، (٦٤) غير أنه كان من الطبيعى لعرب الجنوب أن يعطوا اهتمامهم الاول لمنطقة الساحل الافريقى وظهيره المواجه لبلادهم ،

وكان من عوامل تفوق العرب على المصريين فى الانتشار فى شرق أفريقيا ، تشابه الظروف المناخية والبيئية بين سواحل أفريقيا الشرقية وسواحل الجزيرة العربية المواجهة لها . وهى ميزة جعلت التوسع العربى فى أفريقيا أكثر نجاحا واكثر تفاعلا وثباتا من التوسع المصرى . فلقد اوصل العرب الجنوبيون حضارتهم الى القبائل الافريقية ، خاصة فن المعمار ، وفن الكتابة ، واستئناس الجمل الذى جلبوه معهم الى أفريقيا ، ويشهد على التقدم الحضارى الذى قام به العرب فى شرق أفريقيا فى العصور القديمة عشرات النقوش المكتوبة باللغة العربية الجنوبية وبالخط المسند ، والتى عثر عليها فى هذه المناطق النائية من أفريقيا والتى ترجع الى الالف الاول قبل الميلاد ، والتى تتحدث بالتفصيل عن نظم الرى وقوانين الملكية والنشاط المعمارى ، وتطور الزراعة ، وبناء نظام اقتصادى زراعى متقدم، وادخال النظم الفنية والهندسية ، وازدهار فى الفكر والثقافة ، مما جعل شرق أفريقيا تبدو امتدادا حضاريا لجنوب الجزيرة العربية (٦٥) . ويكفى أن العرب القدماء هم الذين ادخلوا الجمل الى الصحارى الافريقية ، والذى هو اليوم من أهم مصادر الثروة الحيوانية ومن أهم وسائل النقل لدى سكان السودان،والصومال،والحبشة ، ناهيك عن مساهمة العرب القدماء فى تكوين لغات قومية فى أفريقيا ، والتى يأتى فى مقدمتها لغة الجعيز ، وكذلك فى ادخال أبجدية كتابية لاتزال بقاياها قائمة حتى اليوم فى الابجدية الامهرية الحبشية ، بل أن عرب الحبشة ابتكروا طريقة لكتابة الحروف الموسيقية وهو أمر لم يتوصل اليه شعب آخر حتى فى مصر القديمة ذاتها (٦٦) . وعلى النقيض من سلوك الاوربيين فى شرق أفريقيا فى العصر الحديث ، لم يتعالى العرب بعنصرهم عن الزنوج ، بل تزاوجوا معهم على نطاق واسع ، فلقد أحب العرب القدماء الزواج من الافريقيات ، ونشأ عنصر مهجن يجمع بين الدماء العربية والافريقية انتشر فى المنطقة ما بين مقديشيو وممباسا ، وكانت مقديشيو تسمى « حمر » نسبة الى العرب الحمريين الذين كانوا يعيشون فيها منـذ زمن بعيـد (٦٧) .

وفى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، عادت مصر الى النهوض من جديد تحت قيادة البطالمة ، واستعادت سيطرتها على البحر الاحمر ، وظهر الاسطول المصرى بكامل قوته أمام السواحل العربية والافريقية ، وتراجعت القوة البحرية السبئية ، وانكمش اقتصاد دولة سبأ مما تسبب فى سقوطها نتيجة لانتشار القلاقل وحركات التمرد التى أثارها الهمدانيون وشيوخ القبائل الطامعة فى العرش ، مما أدى الى فقدان سيطرة العرب الجنوبيين على تجارة البحر الاحمر وسواحل أفريقيا ، ولا نستبعد أن يكون بطالمة مصر وراء حركات التمرد والقلاقل داخل دولة سبأ لازحاتهم عن طريقهم فى السيطرة على جنوب البحر الاحمر ، كما ان الصداقة التى نشأت بعد ذلك بين البطالمة وملوك حمير من ناحية ، وبين البطالمة والعرب الثموديين فى الحجاز والذين كانت عاصمتهم العلا (ديدان) من ناحية أخرى يدعم هذا التشكك ، وعلى العموم انحسر المد العربى من الناحية السياسية فى أفريقيا نتيجة لانتقال القوة البحرية والتجارية الى أيدى البطالمة ، وقد شرحنا نشاط البطالمة فى شرق أفريقيا من قبل . غير أن هذا الانحسار العربى لم يوقف تدفق المهاجرين العرب سواء من الساخطين على الحكم الحميرى الجديد الذى جاء نتيجة للتغير الذى طرأ على القوة فى جنوب البحر الاحمر ، فمن المحتمل أن اتباع الاسرة الملكية المنهارة وانصارها هاجروا الى أفريقيا خوفا من اضطهاد الحكم الجديد ، كما أن البطالمة لم يغلقوا الباب أمام التجار العرب فى أفريقيا ، ماداموا لا يشكلون خطرا على الاهداف الامنية البطلمية ، ولا يتعاونون مع اعدائهم السليوقيين .

وبتدهور القوة البطلمية فى القرن السابق على الميلاد بسبب فرض الرومان حمايتهم على مصر ، عاد النشاط العربى الى أفريقيا متدفقا ، ثم زاد النشاط العربى فى افريقيا وجنوب البحر الاحمر بعد التفاهم السياسى والاقتصادى الذى تم بين ملوك حمير والامبراطور أغسطس على أثر فشل الحملة العسكرية الرومانية على جنوب الجزيرة العربية ،

بالاضافة الى ذلك فان غياب الاسطول البطلمى عن هذه المنطقة أطلق الحبل على الغارب للنشاط العربى فى أفريقيا ، ومن المعروف أن تدمير الاسطول البطلمى تم على أيد الانباط حلفاء العرب الجنوبيين وشركائهم فى التجارة ، عندما كان أسطول كليوباترا متجمعا فى مياه السويس ، متأهبا للهروب الى الجنوب (٦٨) ، وربما قام الانباط بهذا العمل ليس خدمة للرومان بقدر ما كان خدمة لحلفائهم عرب الجنوب ، وفى ظل السلام الرومانى الذى أمن البحر الاحمر من القراصنة ، وفى حمى الصداقة مع الرومان ، أطلق الرومان للعرب الجنوبيين العنان للتوسع فى أفريقيا فى صمت ، بقدر ما أطلقوا العنان لحلفائهم الانباط لتوسيع مملكتهم على حساب جيرانهم الثموديين أصدقاء وحلفاء البطالمة ، الذين كانت عاصمتهم دادان — على عهد البطالمة — مركزا تتجمع فيه التجارة الافريقية فى الشمال (٦٩) .

ولقد كان من نتائج حملة الرومان على الجزيرة العربية ، انتقال التوابل والعطور وبذخ الشرق الى الامبراطورية الرومانية حتى أن ذوق الرومان قد تغير فى فن الطهى ، وأصبح الرومانى لا يستسيغ مذاق الطعام دون هذه التوابل العربية (٧٠) ، وبزيادة الطلب على هذه التوابل نشطت التجارة العربية لتلبية حاجة الرومان منها ، ومن ثم زادت العلاقة التجارية بين العرب وشرق أفريقيا خاصة منذ النصف الثانى من القرن الاول الميلادى ، فقد كان العرب يبحثون عن العاج ومنتجات أفريقيا الاستوائية والرقيق ، ووصلوا حتى موزمبيق بحثا عنها ، كما لعب عرب الخليج من العمانيين والبحرانيين دورا بارزا فى التجارة مع أفريقيا لايقل عن دور اشقائهم اليمنيين ، ويعلل البعض ذلك الاندفاع العربى نحو شرق أفريقيا بحثا عن التوابل وغيرها الى حدوث تغير فى المناخ ، أدى الى حدوث الجفاف فى جنوب الجزيرة العربية مما أدى الى فشل سكان جنوب العربية فى انتاج البخور والعطور والتى تحتاج الى مناخ حار (٧١) ورطب ، مما دفع السكان العرب الى الهجرة الى شرق أفريقيا بحثا عنها لتلبية

حاجة السوق الدولية • ولقد ازدادت حدة هذا الجفاف فى القرن الثالث الميلادى وبلغ ذروته فى القرن السادس الميلادى ، وبالتالى زادت موجة هجرات العرب الى أفريقيا التى كانوا يجدون فيها ملاذا منذ قديم الزمان ، ويفرون اليها من ظروف الحياة القاسية التى قضت بها طبيعة بلادهم ، أو بسبب الصراعات السياسية المتلاحقة بين الدويلات العربية الجنوبية والتى نبعت من النزاعات القبلية ، ومن الواضح أن عرب جنوب شرق الجزيرة (عرب عمان) بدأوا يديرون ظهورهم للتجارة مع الهند وبلدان الشرق الاقصى ليتحولوا الى التجارة مع أفريقيا ، ويعلل البعض اتجاه عرب الخليج القدماء الى أفريقيا الى التغير الذى حدث فى سوق اللؤلؤ الدولية فى ذلك الوقت ، فقد كان الرومان هم المشترون الاول للؤلؤ العربى الخليجى ، وبأستحكام الازمة الاقتصادية فى الامبراطورية الرومانية منذ عهد نيرون ، بسبب النزيف الدائم للذهب الرومانى ، الذى كان يدفع ثمنا لهذه السلع الباهظة ، بدأ الاباطرة الرومان منذ عهد نيرون يصدرون قرارات صارمة لتعديل مسار الاقتصاد الرومانى ، ففرضوا حظرا على السلع الكمالية مثل الحرير واللؤلؤ ، كما خفضت نسبة الذهب فى الدينار الرومانى ، فانخفضت قوته الشرائية (٧٢) ، وبالتالى ساد كساد فى سوق اللؤلؤ فى الخليج العربى ، فضلا عن منافسة لؤلؤ سيلان والهند للؤلؤ العربى ، مما حدا ببحارة الخليج الى التحول من صيد اللؤلؤ الى التجارة فى التوابل والبخور أو ما يعرف بتجارة « الكارم » وفى ذلك يقول المسعودى أن أصحاب التجارة فى شرق أفريقيا هم من الازد العمانيين وأن تجارتهم مع شرق أفريقيا تدر عليهم ارباحا طائلة (٧٣) •

ويتحدث كتاب الطواف حول البحر الارثرى (أى البحر الاحمر) — الذى كتب فى منتصف القرن الاول الميلادى — بأهتمام عن الموانىء الافريقية وعن باب المندب ، وأماكن الاسواق والمخازن والسلع ، بل ويحدد الاماكن التى تصلح لرسو السفن على الساحل الافريقى (٧٤) ، ويشير الى مناطق الظهير التى تغذى هذه الموانىء بالمنتجات الافريقية ،

أو التى تبتاع من السفن السلع الخارجية ، ومن دراسة احصائية لموانىء هذا الدليل نجد أن الموانىء الافريقية والعربية تفوق موانىء الشرق الاقصى عددا ، ومن الواضح أن مؤلف هذا الدليل مصرى من الاسكندرية وذلك لانه يستخدم الشهور المصرية فى حساباته ، فهو يحدد عدد هذه الموانىء بثمان وعشرين ميناء ، تختص أفريقيا وحدها فيما وراء باب المندب بتسعة موانىء ، بينما تختص بلاد العرب الجنوبية بستة موانىء والخليج العربى بميناءين ، وتختص الهند بسبعة موانىء ، والصين بميناء واحد ، وقد خصص المؤلف الفصول من الاول حتى الثامن عشر لشرح ووصف موانىء الساحل المصرى وساحل شرق أفريقيا ، ومن الفصل التاسع عشر حتى السادس والثلاثين خصصه المؤلف لوصف موانىء ساحل الجزيرة العربية الجنوبى وموانئه ، وأسواقه والسلع التى تباع فيه ، أما بدءا من الفصل السابع والثلاثين وحتى السادس والستين فتناول المؤلف فيها موانىء الهند الغربية والموانىء التى تقع فى بلدان الشرق الاقصى بأشارات نقلت اليه سماعا ، وبدراسة احصائية للمعلومات التى وردت فى كتاب الطواف حول البحر الارثيرى نجد أن موانىء أفريقيا ومصر والجزيرة العربية تحتل ستة وثلاثين فصلا من مجموع فصـــول الكتاب التى يبلغ عددها ستة وستون فصلا ، ومن الملاحظ أن عدد الموانىء المصرية قد تقلص فى هذا العصر الى مينائين رئيسيين هما ميوس هورموس (رأس أبى شعر القبلى) وبرنيكى (خليج أم الكتف) وهو المينـــاء الرئيسى للتجارة المصرية مع موانىء الجزيرة العربية ، ونفهم من ذلك أنه فى القرن الاول الميلادى نتيجة لسقوط اسرة البطالمة واحتلال الرومان لمصر ، تقلص النشاط الاقتصادى المصرى وانكمش بينما امتد النشاط العربى التجارى ليملأالفراغ المصرى (٧٥) .

وأول الموانىء الافريقية التى وردت فى الكتاب هى ميناء بطولومايس (جزيرة الريح) والذى كان على أيام البطالمة المركز الرئيسى للحصول على الفيلة الافريقية ، ثم ميناء عدول Adulis والذى كان مركزا

لتجميع غلات الحبشة وهو أيضا كان فى الاصل مؤسسة بطلمية ، لكن التجارة العربية غمرته ، فقد كان لميناء عدول أهمية خاصة عند التجـار العرب قبل الاسلام ، فقد ترد اسمها فى قصائد الشعر العربى الجاهلى (٧٦)• كما أصبح التجار العرب يصفون بعض السفن بأنها «عدولية» أى صنعت فى ميناء عدول ، ويتغزلون فى نساء عدول ، وجمالهن الذى يجمع بين الدماء العربية والدماء الافريقية (٧٧) ، وكان ميناء عدول ـ كما قصد به مؤسسة بطليموس الثانى ـ مركزا لتوزيع السلع المصرية خاصة النسيج والزجاج، وأصبح على أيام التجارة العربية يصدر مختلف أنواع العاج وقرون الكركدن وجلـود الحيوانات والرقيق الحبشى ، ومن أهم المـوانىء الافريقية الواقعة بعد الخروج من باب المندب ، ميناء افيالتس (والمرجح أنها ميناء زيلع) ، وميناء مالاو (بربرة) ، التى كانت تصـدر المر والقرفة، للرقيق ، والارز ، والدهون الهندية ، وزيت السيرج، والاقطان ، التى يجلبها اوبون Opone (رأس هافون) والتى يذكر المؤلف عنها أنها كانت سوقا للرقيق والارز والدهون الهندية ، وزيت السيرج والاقطان التى يجلبها التجار العرب من الهند والشرق الاقصى ، وكان ميناء أوبون أكبـر موانىء افريقيا الواقعة الى الجنوب من رأس غواردافوى ، وآخر ميناء يذكره المؤلف هو ميناء رابتا Rhapta (لعله كلوة) وذكر أنه كان يصدر العاج ، والذبل ، وقرون وحيد القرن ، وزيت النخيل ، ويستورد من ميناء موزاه العربى المقابل له الرماج والسيوف والحراب (٧٧) ، كما وصف ميناء غواردافوى بأسم ميناء رأس التوابل Cape of Spices (٧٨) •

أما عن أهم موانىء الجزيرة العربية التى تاجرت مع أفريقيا هى ميناء الابلة (أبو لوجوس الواقعة على الخليج العربى) (٧٩) وعمان ، وميناء موشا Moscha (خور ريرى) وقنا Cana وعدن Adana وسوقطرة ، وميناء اوكيليس Ocelis وميناء مخا (الموزاء) ، ثم ميناء لويكى كومى Leuke Kome (الحوراء بالقرب من ميناء الوجه بالحجاز) • ومن أهم الصادرات الافريقية الى بلاد العرب كما وردت فى

الدليل هى : القرفة أو الدارسين (١٠،١٢،١٤) والسمسم (١٣،٤١) ، والمر (١٢،٣٧،٤٩،٥٦) والعاج (١٦،١٧) والذبل (١٣،١٦،١٧) وقرون الكركدن (١٧) والرقيق (١٣ ، ٤٢) . ونفهم من الكتاب أن أفريقيا كانت تنتج بكثرة ، أما استهلاكها للكماليات — باستثناء العطور العربية — فقد كان محدودا (٧٩) .

وهناك فقرة وردت فى كتاب الطواف حول البحر الاحمر ، تصف العلاقة التجارية بين السواحل الصومالية وساحل الجزيرة العربيـــة الجنوبى الغربى وتقول هذه الفقرة « وعلى طول هذا الساحل يعيش رجال قراصنة ، ذوى قامات ضخمة ، وكان لكل منطقة زعيمها الخاص بها ، ويحكمها الزعيم المافاريتيس Mapharetes (أى المعافيرى نسبة الى قبيلة المعافر فى جنوب تهامة) بنوع من الحق القديم أو الشرعية ، اذ جعلها خاضعة لسيادة هذه الدولة التى كان منشأها الاول فى بلاد العرب ، وهم الذين يحكمون هذا الساحل ، ويبعثون الى هناك عددا كبيرا من السفن عليها قباطنة عرب ، وهؤلاء قد تداخلوا مع السكان الوطنيين ، وتزاوجوا معهم ، وعلى معرفة بالساحل كما يعرفون اللغات (الافريقية) المحلية » . ولو حللنا عبارة « ويحكمها زعيم معافيرى بنوع من الحق القديم » ، لعرفنا مدى قدم العلاقة والنفوذ الذى كان يتمتع به عرب جنوب الجزيرة فى مناطق سواحل أفريقيا الشرقية ، وكانت قبيلة المعافر تسكن فى الاصل على الساحل العربى الى الجنوب من تهامة (٨٠) وكان مينا مخا هو عاصمة هذا الاقليم ، فاذا كان مؤلف كتاب الطواف حول البحر الارترى والذى يرجع تاريخه الى حوالى عام ٦٠ بعد الميلاد يشير الى أن المعافير كانوا يحكمون هذا الساحل الافريقى بمقتضى حق قديم ، فان ذلك يعنى أن نفوذ عرب الجزيرة على هذا الساحل تمتد الى قرون سابقة على تاريخ تأليف هذا الكتاب ، وهذا ما يدعم رأينا فى أن النفوذ العربى على سواحل شرق أفريقيا بدأ يتزايد بعد سقوط دولة البطالمة ، وانفلات قبضة يدها على موانيها فى شرق أفريقيا ، وهذا أعطى فرصة للتجار العرب للاقبال على أفريقيا طلبا للتجارة حتى أصبحوا يتحكمون فى أسعار التوابل دوليا (٨١) .

ولو ذهبنا الى ما هو أبعد من تاريخ قبيلة المعافير العربية التى وردت فى كتاب الطواف ، فان قبائل البجة تعتبر أولى العناصر السكانية التى دخلت منطقة الحبشة والسودان حتى وادى النيل شمالا بعد هجرتها من الجزيرة العربية فى عصور الهجرات السامية ابان العصور الحجرية ، لم يعد هناك شك لدى علماء المصريات أن سكان مصر فى عصور ما قبل الاسرات ينتمون الى نفس السلالة التى تنتمى اليها قبائل البجة المهاجرة فى الاصل من الجزيرة العربية (٨٢) ، ويضربون مثلا على ذلك بشعب بنى عامر — أحد فروع قبائل لبجة — فهم رغم ملامحهم الافريقية التى اكتسبوها من طبيعة البيئة والتزواج مع الزنوج — الا أنهم يتكلمون لغة سامية هى أصل اللغة العربية الجنوبية) . ولقد اختلط العرب بقبائل البجة فى أول الامر عن طريق مصر ، وتزاوجوا مع بعض فروعهم مثل الهدندوة وبنى عامر والامرار والبشارين ، وتتيجة لهذا التزواج تعدلت بعض الصفات الجسمانية وملامح الوجه لهذه القبائل ، وأصبحت مميزة عن سائر فروع العنصر « الزنجى » (٨٣) .

وتعيش سلالة البجة اليوم فى المنطقة الممتدة من أسوان فى مصر شمالا الى الاطراف الجنوبية لهضبة الحبشة جنوبا ، ومن صحراء البحر الاحمر المصرية شرقا ، حتى السودان ونهر عطبرة غربا ، ولقد عرف الاغريق والرومان قبائل البجة لنشاطها الذى كان يهدد وجودهم فى مصر ، وأطلقوا عليهم اسم البليميين Blemmyes ، والراجح أن هذا الاسم يرتبط ثقافيا ولغويا بأصلهم العربى (٨٤) .

وخلال القرنين السابقين على الاسلام ، عبر عدد غير قليل من الحميريين مضيق باب المندب خاصة بعد انهيار سد مأرب فى القرن الخامس بعد الميلاد ، واستقر بعضهم فى الحبشة ، وتحرك البعض الآخر متتبعا النيل الازرق ونهر عطبرة ليصلوا الى بلاد النوبة العليا (٨٥) ، بل استوطن بعضهم ساحل الصومال ، وقد سبق أن أشرنا أن اسم « مقديشيو » القديم كان يعرف بأسم « حمر » نسبة الى انتسابهم الى قبائل حمير (٨٦)،

ويقول ياقوت الحموى أن ملوك النوبة كانوا يزعمــون أنهم من حمير (٨٧) ، وأن هؤلاء الملوك كانوا يتخذون لقب كابيل ولعل هذا اللفظ تحريف للقب « القيل » وهو اللقب الذى أطلق على بعض امراء حمير (٨٨)، ويؤكد ذلك أيضا الشارات الملكية الحميرية التى وجدت طريقها الى بلاد النوبة العليا ، واتخذها بعض ملوكها شارات لهم (٨٩) ، بل نقل المهاجرون العرب الى النوبة بعض أسماء أجدادهم مثل كوة ، داروا ، وسبأ ، كما أنه من المحتمل أن مملكة « سوبا » فى النوبة ربما أخذت اسمها من سبأ (٩٠) ، كما أن لفظ « بلى » وهو اسم قبيلة بلى القحطانية ، أصبح مرادفا للفظ عربى فى اللغة التبداوية لغة البجة (٩١) ، ومن المعروف أن قبائل بلى القحطانية كانت أكثر القبائل العربية انتشارا بعد انهيــار سد مأرب ، فقد امتدت حتى صحراء سيناء شمالا وتمركزوا حــول برزخ السويس (٩٢) • ومن المعروف أن القبائل العربية التى هاجرت الى الحبشة كانت تسكن قبل هجرتها على الساحل العربى أو قريبا منه ــ فمثلا قبيلة سهرت (سحرت) كانت على ما يبدو تسكن على رأس مضيق باب المندب فى منطقة « مخا » الحالية ، وقبيلة « حبشت » أشهر القبائل العربية التى هاجرت الى أفريقيا كانت تسكن ــ حسب ماورد فى النقوش العربية ــ على الساحل الجنوبى الغربى لشبه الجزيرة ، وقيل أنهــا اتخذت فى هجرتها الطريق البحرى الذى يصل بين خليج مصوع وهضاب الحبشة العليا ، ثم اتجهوا جنوبا مارين بأقليم أكسوم وتكازة ، كما احتلوا الجانب الشمالى من الحبشة وغلبوا عليها حتى أن اسم هــذه القبيلة غطى على اسم أكسوم ، ومن ثم أصبحت بلاد أكسوم تعــرف ببلاد الحبشة (٩٣) • ومن أقدم القبائل العربية التى عبرت البحر الاحمر الى أفريقيا قبيلة الاجاعز (أو الاجعازيان) وكان أيضا موطنها على الساحل بين صنعاء وعدن ، ولهم نقوش كثيرة تذكرهم فى الحبشة واليمن ، وقد فرضت لغتها العربية القديمة على الافارقة الاحباش ، وهى لغة الجعز أو لسان جعز نسبة الى هذه القبيلة (٩٤) •

هكذا يتبين أن هجرات عرب جنوب الجزيرة والخليج الى سواحل شرق أفريقيا والحبشة كانت منذ عصور قديمة ، اذ كان المهاجرون العرب يجدون فى هذه السواحل ملجأ يفرون اليه ، سواء من الحياة القاسية ، أو صراع القبائل العربية الذى لم يتوقف ، أو بسبب الكوارث الطبيعية كحدوث الجفاف أو تهدم سد مأرب ، أو بسبب الصراعات الدينية بين اليهود والنصارى العرب كما سنرى ، وعلى أى حال فقد كانت أفريقيا - على حد قول الطبرى - هى المنفذ الوحيد للعرب ليجدوا فيها الرزق باحتراف التجارة وسائر المهن المختلفة (٩٥) . ومن المفهوم أن نزاعا حدث فى أول الامر بين المستوطنين العرب وأصحاب البلاد من الافارقة ثم بطول المقام بدأ العرب فى التزاوج من الافريقيات ، وقد أدى ذلك الى ظهور المؤثرات العربية فى الثقافة الافريقية كاللغة والكتابة والاسماء والدين ، ولم تلبث أن فرضت الحضارة العربية الجنوبية نفسها على حضارة الزنوج ، كما اكتسبت أجيالهم الملامح الافريقية الداكنة والشعر الاجعد، ثم تفوق هؤلاء المهجنون على الزنوج الخالصين ، وبسطوا عليهم نفوذهم الاقتصادى والسياسى ، وأصبحوا يملكون زمام الحكم على الجزء الشمالى من الحبشة ، ثم على سائر البلاد ، وبلغ من تأثير النفوذ العربى أن تحدثت النقوش العربية الجنوبية عن الحبشة (حبشت) ، كما لو كانت جزءا من الجزيرة العربية وليس من أفريقيا . وبعد أن رسخت أقدام القبائل العربية فى ساحل سمهرت الحبشى والهضبة الحبشية ، وتشابكوا عرقيا وثقافيا واقتصاديا مع الزنوج ، بدأوا يفرضون نفوذهم على سائر بلاد النوبة والساحل الصومالى معلنين قيام دولة أفريقية عربية حاضرتها مدينة أكسوم Oppidum Axumae ، ويلاحظ أن قيام هذه الدولة تزامن مع تدهور الدولة الحميرية الاولى فى جنوب الجزيرة ، وكأن القوة انتقلت من بلاد العرب الجنوبية الى شرق أفريقيا ، ومن الاجداد العرب الخالصين ، الى الاحفاد الافارقة « المستعربين » .

وتزعم الاساطير الحبشية التى تأثرت بالاساطير الاغريقية المصرية

أن البطل الاسطورى اثيوبس Aethiops (ومعناها بالاغريقية ذو الوجه المحترق) الذى ورد اسمه فى اسطورة حرب طروادة ، كان ملكا على اقليم اثيوبيا جنوب اقليم طيبة المصرى ، وورد أن اسمه كان ممنون Memnon ، وأن أمه ربة الفجر اورورا Aurora ، وأنه لقى مصرعه فى الحروب الطروادية لانه كان يحارب الى جانب الاسيويين ضد الاغريق، وقد تعمد البطالمة اختلاق أسطورة حول تمثالى ممنون فى الاقصر اللذان يبكيان وينتحبان عند طلوع الفجر . وهذا يؤكد أهمية العنصر الاثيوبى فى عصور البطالمة المتأخرين وفى عصور الرومان ، ولا يهمنا ذلك بقدر ما تهمنا الاسطورة الحبشية التى زعمت أن هذا الملك قد انجب ابنا سماه أكسوماى ونسبوا اليه تأسيس هذه المدينة عاصمة الحبشة . لكننا لا نعرف شيئا عن تاريخ هذه المدينة قبل قيام الدولة العربية الافريقية فى الحبشة فى القرن الاول الميلادى ، ولعلها محاولة متأخرة من جانب الاحباش لتأصيل تاريخهم الى عصور حرب طروادة . كذلك لا نعرف، بالتحديد الزمن الذى ظهرت فيه الرواية الحبشية التى تحدثت عن ملكة سبأ بلقيس والتى سماها الاحباش « ماقدة » ويزعمون أنها كانت ملكة على سبأ وأكسوم فى وقت واحد ، ويزعمون أنها انجبت من سليمان عليه السلام ولدا أسماه « منليك » أى ابن الحكيم ، وأن سليمان كناه بداوود ، واولاه ملك الاحباش ، له ولذريته من بعده من الذكور ، ونسبت الروايات الى منليك تأسيس دولة أكسوم ، غير أنه يبدو أن هذه الاسطورة من ابتكار نصارى الحبشة فيما بعد ، لان الآثار الحبشية تظهر بكل وضوح وجلاء أن الاحباش ظلوا وثنيين حتى القرن الرابع الميلادى ، ثم بعدها بدأوا يتحولون الى المسيحية (٩٦) .

ولقد كانت ديانة الاحباش حتى القرن الرابع الميلادى امتدادا لديانة عرب جنوب الجزيرة الوثنيين ، فأقدم النقوش الدينية الحبشية مقدمة الى « المقة » رب القمر عند السبئيين ، كما عثر أيضا على رموز ورسوم دينية لها صلة بالدين العربى الجنوبى ، مثل صورة الهلال وأمامه قرص

الشمس (اللات) ، وعلى رموز للرب العربى الجنوبى عثتر (العزى) ، والذى كان طبقا للاساطير الدينية العربية الجنوبية ولد المقة (القمر) من اللات ؛ فقد نقل العرب المهاجرون الى الحبشة دياناتهم التى تتمثل فى الثالوث السماوى السابق الذكر (٩٧) ، وبمرور الزمن وبتفاعل الحضارة العربية مع الحضارة الافريقية أضيفت الى قائمة الارباب العربية اربابا أفريقية رمزا للانصهار الثقافى والعقائدى بين الشعبين ، فقد ذكرت بعض النصوص المنسوبة الى الملك عيزانا قبل تنصره فى القرن الرابع الميلادى، انه أقام عرشا فى حماية ثلاثة آلهة عثتر وبراص ومدر . وعثتر هو أحد اركان الثالوث المقدس عند عرب جنوب الجزيرة ، بينما نجد أن « براص » هو رب زنجى أفريقى قديم يرمز الى « الرعد » ، وكذلك « مدر » (٩٨) ، الذى ربما هو تحريف للربة الاغريقية ديمبتر Demeter ربة الزراعة أو للربة الام عند الرومان Magna Mater ، والتى كانت ترمز الى الارض ، وبالفعل كانت مدر هى ربة الارض ، أى أن الثالوث الافريقى أسقط اللات والمقة (الشمس والقمر) وأحل محلهما الارض والزراعة ، وهو أمـــر طبيعى نظرا لاختلاف البيئة بين الشعبين .

وهذان الربان الجديدان أوجدهما المهاجرون بعد امتزاجهم بالثقافة والتراث الافريقى . بل انتقلت هذه الديانة العربية الحبشية الى الجزيرة العربية ذاتها . وجدير بالذكر أن نفس الشىء حدث فى شمال أفريقيـــا عندما نقل التجار القرطاجيون العبادات الوثنية القرطاجية الى القبـــائل الافريقية فى غرب أفريقيا ، غير أن القرطاجيين لم يمتزجوا ويتزاوجوا مع قبائل غرب ووسط أفريقيا على نحو ما فعل عرب جنوب الجزيرة ، انما كانت علاقتهم بالافارقة علاقة تجارية بحتة ، ومن خلال التعامل التجارى تسللت الحضارة الفينيقية الى قبائل الزنوج على طول نهر النيجر ، لتساهم فى تطور حضارة غرب ووسط أفريقيا .

ولقد كانت لغة اكسوم ــ مثلما كان دينها ــ سبئية عربية ، لغـــة وكتابة ، وذلك فى الطور المبكر من تاريخ هذه الدولة الافريقية ، وبمرور

الزمن بدأت اللغة السبئية العربية فى الحبشة تتطور فى شكلها وموضوعها، فلم ينته القرن الرابع الميلادى حتى أصبحت لغة الحبشة متميزة فى صور حروفها وطريقة كتابتها عن اللغة العربية الجنوبية الام ، فقد انفتحت هذه اللغة الوليدة على اللغات الحامية الافريقية الاخرى (٩٩) • ولا تزال اللغة الامهرية فى الحبشة الحديثة لغة سامية العرق والاصول ، وتحتفظ بسمات اللغة العربية الجنوبية التى انقرضت بعد سقوط الدولة الحميرية • كما أن الابجدية التى لايزال الاحباش يكتبون بها تحتفظ بكثير من أشكال الخط المسند الذى كان يكتب به عرب الجنوب حتى القرن الخامس الميلادى •

ومن العوامل التى ساعدت على احداث الافتراق بين الثقافة واللغة فى جنوب الجزيرة وبين الحبشة ، الافتراق الدينى ، فبينما بدأت اليهودية تنتشر فى أواخر أيام الدولة الحميرية ، نجد أن المسيحية بدأت تنتشر فى نفس الوقت تقريبا فى الحبشة ، فقد شهدت العقيدة اليهودية ازهى أيامها فى القرون الثلاثة السابقة على الاسلام ، ولكن ليس فى فلسطين (التى طرد الرومان اليهود منها مرتين مرة عام ٧٠ ميلادية على يد طيطوس Titus ومرة أخرى عام ١٣٢ ميلادية على يد هادريانوس الذى غير حتى اسم اورشليم الى اسم رومانى وثنى وهو ايليا كابيتولينوس (Aelia Capitolinus) وانما فى جنوب الجزيرة العربية ، فقد نجح المبشرون اليهود منذ القرن الرابع الميلادى فى تهويد بعض ملوك الدولة الحميرية (١٠١) ، وتقول الروايات العربية أن أول من اعتنق اليهودية من هؤلاء الملوك هو أبو كرب أسعد كامل (٣٨٥ — ٤٢٠م) الذى خلدت فتوحاته وتوسعاته فى الجزيرة العربية ومنطقة الخليج فى أشعار حماسية عربية • وقد حمل المبشرون اليهود معهم حقدهم على الروم ، وعلى العقيدة النصرانية ، والتى يعتبرها اليهود مؤامرة للقضاء على تساميهم على الشعوب الاخرى وعلى عقيدتهم، ومن ثم وقفوا بالمرصاد لابطال حركات التبشير النصرانية التى بعث بها ملوك الروم الى جنوب الجزيرة ، أو جعلها فى أضيق نطاق • واستخدم

اليهود نفوذهم المالى والاجتماعى لتحريض ملوك حمير على المسيحية وعلى حماتها الروم الشرقيين ، وبالطبع كانت الدولة الساسانية المجوسية فى فارس ، والتى كانت تدعو الى طرد الروم من الشرق الادنى ، تبارك وتدعم هذا الدور لاضعاف نفوذ امبراطوريتهم فى جنوب البحر الاحمر . وردا على ذلك عملت امبراطورية الروم على نشر المسيحية فى الحبشة ، وتحويل هذه الدولة ـ بعد ربطها بوشائج الثقافة الروحية معها ـ الى دولة تابعة لها ترعى مصالحها فى جنوب البحر الاحمر وشرق أفريقيا ، بل وفى شبه الجزيرة العربية نفسها ، بجعل الحبشة حامية للعقيدة النصرانية فى هذه المنطقة .

كانت أول سفارة نصرانية الى الجنوب العربى تلك التى أرسلها الامبراطور قسطنطيوس خليفة قسطنطين الكبير عام ٣٥٦ ميلادية برئاسة المبشر ثيوفيلوس (Theophilos) الهندى ، وذلك لنشر النصرانية بين عرب الجنوب على المذهب الاريوسى مذهب كنيسة الروم ، وقد أفلح ثيوفيلوس فى انشاء كنيسة فى عدن ، وكنيستين أخريين فى أرض حمير ، ومن ناحية أخرى عمل العرب السريان فى الشام على نشر المسيحية على المذهب المونوفيزى بين أشقائهم عرب الجنوب ، وتذكر كتب التراث العربى القديم أن أول من بشر بالمذهب المونوفيزى راهب اسمه قميون (Kimion) الذى جعل مدينة نجران مركزا للكنيسة المونوفيزية ، وقد نقل لنا ابن هشام والطبرى حكاية هذا الراهب السوريانى ، وكيف وقع أسيرا فى أيدى قافلة عربية جاءت به الى نجران . وقد بقيت كنيسة نجران صامدة لمؤامرات اليهود ، والى هذه الكنيسة أرسل الاسقف السوريانى يعقوب السروجى المتوفى عام ٥٢١ ميلادية كتابا بالسوريانية يحث نصارى نجران على الجهاد الروحى والثبات ضد الاضطهاد اليهودى (١٠٢) . غير أن مجهودات امبراطورية الروم فى نشر المذهب الاريوسى فى الجنوب العربى تكاد أن تكون قد فشلت تماما بفضل كراهية اليهود للروم ولمسيحيتهم ، أما النصرانية المونوفيزية فكانت جيبا صغيرا

فى نجران ، وربما كان كراهية المونوفيزيين للروم ومذهبهم الاريوسى سببا فى بقائهم وعدم سحقهم تماما • أما اليهودية فقد أخذ ساعدها يشتد ، حتى اذا ما أقبل القرن السادس الميلادى ، صارت لليهود صولة وجولة ونفوذ فى اليمن (١٠٣) ، وكان يوسف ذو نواس سليل التبع أسعد كامل ، من أشد ملوك حمير تعصبا لليهودية •

أما بالنسبة للحبشة ، فقد كانت أرضا خصبة للتبشير النصرانى على المذهب المونوفيزى ، وقد سبق أن تحدثنا عن دور كنيسة الاسكندرية فى القرنين الثانى والثالث الميلاديين ولجوئهم الى النوبة ، وعن تعميد اساقفة الاسكندرية لبعض الرهبان الاثيوبيين ، لكن التبشير المصرى المسيحى بقى محصورا فى الشمال ، بينما بقيت أغلب قبائل الحبشة وثنية تـدين بالدين العربى الجنوبى حتى القرن الرابع الميلادى • وفى عام ٣٣٠ ميلادية وصل الى الحبشة المبشر السكندرى فرمنتيوس Fermentius وراح يبشر بالمذهب المونوفيزى ، وقد اعتنق ملك الحبشة عيزانا (١٠٤) ، (الذى حكم الحبشة من ٣١٧ الى ٣٢٤ م) النصرانية على يد فرمنتيوس ، وعينه اسقفا على أول كنيسة حبشية فى القرن الرابع ، وقد اختار الأحباش اسما عربيا لهذا المبشر الاغريقى المصرى وهو « باسلامة » ، ومن الجدير بالذكر أن عيزانا عاصر الامبراطور الرومانى قنسطنطين الكبير الذى كان قد اعتنق النصرانية أيضا ، وعمل على احياء الدولة الرومانية القديمة من جديد ولكن بديانة جديدة وهى النصرانية ، وربما حاول عيزانا أن يقلد قنسطنطين ببناء دولة حبشية جديدة بدين جديد يقـوم على النصرانية المونوفيزية • لان عيزانا كان يتطلع لبناء امبراطورية حبشية بعد فتح أرض أجداده العرب ، وكان هذا فاتحة عهد من الصراع بين وطن الاجـداد فى جنوب الجزيرة ووطن الاحفاد فى الحبشة غير أن مجهودات فرمنتيوس بقيت مقصورة على نطاق القصر الملكى ورجال الطبقة العليا ، لان غالبية الاحباش بقوا على الدين العربى الافريقى الوثنى • أما الفضل الاول

فى نشر النصرانية المونوفنزية فى الحبشة فيرجع الى نصارى عرب الشمال ، أقصد السوريان . فمنذ نهاية القرن الخامس الميلادى ، قدم الى الحبشة وفد من تسعة رهبان من السوريان ، بعد أن رفضوا قرارات مجمع أفيسوس (٤٣١ م) ومجمع خلقدونية (٤٥١ م) ، وعملوا جاهدين على نشر النصرانية المونوفيزية على المستوى الشعبى ، وبذلك بعثوا النشاط فى دعوة فرمنتيوس السكندرى ، وبدأت الديانة الوثنية العربية الافريقية تتضاءل تماما ويحل محلها النصرانية العربية القادمة من شمال الجزيرة ، وبوصول المبشرين السريان الى الحبشة بدأ تأثير الثقافة العربية السوريانية على ثقافة الحبشة (١٠٥) . فقد بدأ السوريان يدخلون تعديلات على اللغة الحبشية لتناسب الروح المسيحية ، فأبتكروا بعض الحروف المتحركة ، واضافوا مترادفات دينية جديدة ، وغيروا من طريقة كتابتها ، فجعلوها تكتب من الشمال الى اليمين ، بدلا من طريقة المحراث Boustrophedon التى كان يكتب بها العرب الجنوبيون ونقلوها الى الاحباش . ومن المعروف أن الثقافة العربية الشمالية فى الشام ، تشربت كثيرا من روح الحضارة والثقافة الهللينستية ، فاللغة السوريانية ذاتها خليط من السامية الشمالية واللغة الاغريقية ، ومن الجدير بالذكر أن اللغة المصرية القديمة تعرضت هى الاخرى لتغيير فى حروفها ومترادفاتها لكى تصبح صالحة لنقل الاناجيل اليها ، مما أدى الى مولد اللغة القبطية فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه اللغة السوريانية تقريبا . ومن ثم تأثرت اللغة الحبشية فى الجنوب بما حدث فى لغات مصر والشام . خاصة أن النقوش اليونانية بدأت أيضا تكثر فى الحبشة مع دخول المسيحية باعتبارها اللغة التى ترجمت اليها الاناجيل ، ولغة التبشير المسيحى فى حوض البحر المتوسط .

ولقد أثبتت دراسة النقوش التى عثر عليها فى الحبشة سواء عربية قديمة كانت أو أكسومية أو أغريقية أبعادا قديمة لتطلعات الاحباش لاحتلال جنوب الجزيرة العربية منذ اواخر حكم الدولة السبئية وبدأ ذلك بتدخل الاحباش فى الصراعات التى دارت بين ملوك سبأ وبنى همدان

المتمردين عليهم ، فقد ذكرت هذه النقوش أن الملك الحبشى « جدرت » تبادل الرسائل مع قادة التمرد من بنى همدان ، وبالرغم من نجاح ملك مبأ الشرعى فى استعادة ملكه ، غير أن الاحباش كانوا قد وضعوا أقدامهم فى الجزيرة العربية ، وأقاموا لهم قاعدة عسكرية هى « سحرت » عند الطرف الجنوبى الغربى للجزيرة العربية [١٠٦] .

ومن أشهر ملوك الحبشة الذين تدخلوا فى شئون الجزيرة العربية الملك أفيلاس Aphillas (٢٧٧ — ٢٩٠ م) ثم الملك سمبروتس أو ال عميدا (٣١٤ — ٣١٦ م) ثم عيزانا (أو اذينة الحبشى) ٣١٧ — ٣٤٢ م .
ولقد نقل لنا الرحالة كوزماس بحار الهند Cosmas Indicopleustes فى النصف الاول من القرن السادس الميلادى بعض النقوش الاغريقية التى كانت موجودة فى ميناء عدول [١٠٧] من بينها نقش يتحدث عن القاهر الاكسومى صاحب الفتوحات الشاسعة التى امتدت شمالا حتى حدود مصر حيث أخضع قبائل البجة ، وجنوبا حتى القرن الافريقى ، وتتحدث النقوش عن مغامرات هذا الملك الاكسومى فى بلاد العرب ، وكيف أنه عبر البحر الاحمر ، وأخضع القبائل العربية فى جنوب الجزيرة ، ولعلها القبائل العربية التى تقطن الى الشمال من أرض حمير ، ثم تقول النقوش أنه أخضع قبائل الكنايدو كولبيت (ولعلها قبائل كندة أو كنانة التى كانت تقطن ساحل البحر الاحمر المطل على ميناء الحديدة الحالى) ، ثم زحف هذا الملك بجيوشه الى قلب الجزيرة العربية ، حتى وصل الى ميناء ليوكى كومى ميناء الحوراء بالقرب من ميناء الوجه بشمال غرب الحجاز) وبسط نفوذه عليه ، ويرى كونتى روسينى Conti Rossini الذى درس هذه النقوش ، أن كل الادلة والظواهر تؤكد أن هذا الملك الاكسومى الذى تمجده هذه النقوش ليس الا الملك أفيلاس ، وانه فعلا توسع فى بلاد العرب ، ويدلل على ذلك بأن عملة الحبشة فى تلك الفترة أخذت تقلد عملات جنوب الجزيرة النقدية شكلا ووزنا وقيمة [١٠٨] .

ولما نهضت الدولة الحميرية الثانية على يد الملك الحميرى شمر يهرعش، والذى ذكرته الاساطير العربية بأسم شمر يرعش (٢٨٠ — ٣١٠ ميلادية) وأشادت بفتوحاته ، ولقبوه بالتبع الاكبر ، وجاء ذكره فى القرآن الكريم (١٠٩) ، وقام هذا التبع الاكبر بطرد الاحباش من اليمن ومن قاعدتهم فى « سحرت » وقد عاصر هذا التبع عهود الاباطرة الرومان دقلديانوس وقنسطنطين الكبير . غير أن ملك الاحباش الجديد ال عميدا (سمبروتس فى اليونانية) قام فى مطلع القرن الرابع الميلادى بحملة انتقامية على الدولة الحميرية ، اعادت « سحرت » الى الاحباش ، بل ضمت بلاد العرب الجنوبية الى الدولة الحبشية حسب زعم نقوش الحبشة (١١٠) . وفى عام ٣١٦ ميلادية مات ال عميدا تاركا طفلا صغيرا هو عيزانا Ezana ، فسرى الضعف فى ممتلكات الحبشة فى الجزيرة العربية ، وثارت القبائل العربية على حكم الاحباش ، واستغل أحد ملوك الحيرة واسمه امرؤ القيس (المتوفى عام ٣٢٨ م) ، وطرد الاحباش من الجزيرة العربية ، ولقد عثر العالم دوسو Dussaud على كتابة فوق ضريح هذا الملك فى النمارة بالصفا (حوران) وهى أقدم كتابة بالخط العربى الشمالى المأخوذ عن الكتابة النبطية ، والذى لا نزال نستخدمه فى كتابة اللغة العربية حتى الآن ، ويقول مطلع هذا النقش العربى « تى نفس مر القيس بر ملك العرب كله ذو اسر التاج » أى هذا ضريح امرؤ القيس ملك كل العرب ، صاحب التاج . ، ويقول امرؤ القيس فى هذا النقش أيضا أنه بلغ فى فتوحاته فى الجزيرة العربية حتى مدينة شمر ونجران (١١١) .

وفى عام ٣٣٠م اعتنق عيزانا ملك الحبشة النصرانية المونوفيزية على يد أحد رجال الدين السكندريين وهو فرمنتيوس ، وعينه مطرانا على الحبشة بعد منحه لقب « أبا سلامة » ثم أعاد النظام الى مملكته ، ونهض بها . ثم سار بقواته الى مملكة مروى فأعاد اخضاعها بعد أن كانت قد تمردت على حكم الاحباش ابان فترة الفوضى التى تلت موت ال عميدا ،

وبعد اخضاعها قام بتحطيم أصنامها الوثنية ، وفرض عليها المســـيحية المونوفيزية •

وعلى الناحية الاخرى من البحر الاحمر ، تتحدث الروايات العربية عن أحد ملوك حمير الذين تهودوا واسمه دميانوس وهو سليل التبع أسعد كامل المتهود ، والذى كان معاديا للروم وللنصرانية ، حتى أنه راح يضايق التجار الروم عند عبورهم ببضائعهم أرض اليمن أو مياهها • خاصة أن الحرب كانت مستعرة بين الروم وبين الفرس فى ذلك الوقت • وربما اراد دميانوس أن يظهر حسن نواياه تجاه الفرس ، فقام بأسر قافلة من التجار الروم القادمين من مملكه الحبشة الى مصر ، وأمر بقتلهم ، وانتقاما من هــذا الملك الحميرى قام امبراطور الروم زينــون Zeno بالتعاون مع ملك الحبشة أيدوج Aidog ، وسيرا حملة على حمير حوالى عام ٤٨٠ بعد الميلاد ، انتهت بتمكين الاحباش من استعادة نفوذهم فى اليمن ، ولقى دميانوس مصرعه ، وولى الاحباش أميرا حميريا نصرانيا عميلا لهم ، وما أن غادر ايدوج وقواته أرض اليمن ، حتى أنقض اليهود على هذا الملك الدمية وقتلوه ، وولوا أصغر أبناء دميانوس ملك حمير السابق واسمه « زرعة » — على عرش حمير • وبعد تنويجه تهود زرعة وغير اسمه الى يوسف ذو نواس • ولقد كان يوسف ذو نواس يمثل الروح القومية العربية مثل جده أبو كرب أسعد كامل (٣٨٥ — ٤٢٠ م) فقرر أن ينتقم من النصارى المونوفيزيين فى معقلهم فى مدينة نجران وذلك لمساعداتهم وتعاونهم مع ابناء عقيدتهم من الاحباش ، فدخل هذه المدينة بقواته ، وفى أحد أيام شهر أكتوبر (تشرين الاول) من عام ٥٢٣ ميلادية فى عهد الامبراطور الرومى جوستين الاول ، جمع يوسف ذو نواس من نجا من النصارى وخيرهم بين ترك النصرانية المونوفيزية والتحول الى اليهودية أو الحرق أحياء ، فأراد هؤلاء النجرانيون أن يثبتوا ليوسف أنهم ليسوا أقل من نصارى مصر والشام حبا فى الاستشهاد من أجل الثبات على العقيدة ، فرفضوا مطلبه ، فأعد لهم يوسف أخدودا أضرم فيه النيران

وألقى بهم فيه ، وعلى رأسهم اسقفهم عبد الله بن التامر خليفة قميون ، وترك هذا الانتقام ذكرى مريرة فى نفوس النصارى العرب . ولقد ادان القرآن الكريم بعد اكثر من قرن من الزمان هذا العمل الاجرامى بلهجة غاضبة كأن الحادثة قد وقعت بالامس (١١٢) . وجاء فى أخبار العرب أن أحد الناجين واسمه « دوس ذا ثعلبان » أفلت ولجأ الى القسطنطينية ومثل فى بلاط جوستين الاول ، وروى له خبر المأساة ، وكان جوستين يعتبر نفسه حاميا للعقيدة النصرانية ، ولما كان الشهداء من المونوفيزيين وليسوا من الاريوسيين ، فلم يتحمس الامبراطور كثيرا . وقال لدوس ذا ثعلبان — حسب ما ورد فى أخبار العرب على لسانه « نأت بلادك عنا فلا نقدر أن تتناولها بالجنود ، ولكننى سأكتب الى نجاشى الحبشة (وهو كلب الا أصبحا حسبما ذكرته النقوش) وهو أقرب ملوك النصرانية الى بلادك » . ووجد كلب الا أصبحا أن الفرصة مواتية لاحتلال جنوب الجزيرة العربية ، وتحقيق حلم الاحباش القديم ، بأعتباره الملك الحامى للعقيدة المونوفيزية ، وعلى الفور ارسل حملة بقيادة قائد اسمه ارياط (١١٣) ، ويعاونه زعيم من الاحباش المقيمين فى بلاد العرب اسمه ابرهة (ابراهيم بلغة الاحباش) ، وفى أواخر عام ٥٢٣ م عبرت قوات الاحباش البحر الاحمر على ظهور سفن الروم ، ونزلت بساحل اليمن ، وتقدمت نحو نجران ، وقاوم الحميريون عبثا ، وأخيرا كما يروى الطبرى رأى ذو نواس أن لا طاقة له بالاحباش ، فركب فرسه ، واعترض البحر فأقتحمه . فكان آخر العهد به » ، ودخل الاحباش عاصمة الدولة الحميرية الثانية وهى ذمار أو ظفار ، وهكذا كانت خاتمة آخر مملكة عربية جنوبية قبل الاسلام . ولهذه الحملة أهمية كبرى فهى تكشف سعى امبراطورية الروم الى الاستعانة بالحبشة كى تبسط سلطانها على قبائل العرب وتستخدمها فى مناوأة الفرس .

وكان أول عمل قام به أرياط هو اعادة النظام الى البلاد ، وقمع الحرب الاهلية التى كانت مستعرة بين اليهود والنصارى ، وخوفا من

أن يفتك النصارى المونوفيزيون باليهود أنتقاما لضحايا محرقة الاخدود ، قام الاحباش بتهجير اليهود العرب من جنوب الجزيرة الى الحبشة ، ضمانا لعدم تمردهم عليهم وحتى يكونوا تحت رقابة الدولة الحبشية ، وهؤلاء اليهود العرب الذين ينتسبون الى يوسف ذو نواس ، نسبوا أنفسهم عندما أقاموا فى الحبشة الى منليك ابن سليمان من ملكة سبأ ، ولقد أطلق هؤلاء على أنفسهم اسم الفلشة أو الفلاشا ، ولا يزالون يعيشون حتى اليوم فى المنطقة الواقعة بين اكسوم وغندار ، ويتكلمون لغة كوشية هى لغة الاجاو ، ولا يعترفون من التوراة الا بالاسفار الخمسة الاولى ، والتى يقراونها بلغة الجعز لغتهم القومية العريقة ، وبمرور الزمن اندمجوا مع العناصر الزنجية الافريقية ، وأثروا فيها كما تأثروا بها ، ومن المعروف أن الدولة اليهودية فى فلسطين تقوم حاليا بنقل وتهجير هؤلاء الفلاشا الى اسرائيل (١١٤) .

ولم يمض وقت طويل على نزول الحملة وسيطرتها على البلاد ، حتى دب الخلاف بين أحباش أفريقيا وأحباش اليمن ، وكان أحباش اليمن يتطلعون لحكم اليمن والاستقلال به عن التاج الاكسومى ، وكان يتزعمهم أبرهة مساعد أرياط ، وفى نفس الوقت اعاد الاحباش نفوذ الروم فى جنوب البحر الاحمر ، مما جعل الفرس يعملون على بث الشعور الوطنى العربى ضد الاحباش ، فثارت بقايا امراء حمير ، ولقد سجل الهمدانى نقشا قرأه على بعض أطلال قصور ملوك حمير الغابرين وترجمه الى العربية ويقول هذا النقش « لمن ملك ذمار ؟ لحمير الاخيار ! لمن ملك ذمار ؟ للحبشة الاشرار ؟ لمن ملك ذمار لفارس الاحرار ؟ لمن ملك ذمار ؟ لقريش التجار » (١١٥) .

ولقد تزعم السميفع أشوع الثورة على حكم الاحباش ، والمؤرخون الروم يعرفون السميفع ويسمونه باللاتينية اسميفايوس Esimiphaeus ، وكان السميفع قد اعتنق النصرانية الاريوسية التى هى مذهب كنيسة القسطنطينية وذلك على يد الاسقف جرنتينوس الرومى Grentinus

وتحت ضغط القسطنطينية ولاه الاحباش حكم اليمن ، ولقد كان جرتنينوس معروفا بعدائه السافر لليهودية وللنصرانية المونوفيزية ، وحاول السميفع تطبيق ارائه مما أدى الى ثورة الاحباش عليه ، وانتهز ابرهة الفرصة وعزل السميفع ، وجلس مكانه على عرش حمير عام ٥٣٠م طبقا للتقاليد الافريقية والتى تعطى أبناء البنت حق ارث الاخوال • ولا ندرى ماذا حدث للسميفع ، غير أن النقش الشهير الذى عثر عليه فى حصن الغراب فى حضرموت وتاريخ تدوينه عام ٥٢٥ ميلادية ، يذكر أن السميفع الملك العربى الحميرى قد هرب الى الجبال مع اولاده وتحصن فيهما للمقاومة ، ولكن النقش لم يذكر لنا نتيجة هذه المقاومة التى يبدو أنها قد تبددت •

ولم يمض وقت طويل ، حتى بدأ الاحباش اليمنيون بقيادة أبرهة يطالبون بالاستقلال عن دولة الحبشة الافريقية ، وقاد ابرهة تمردا على مولاه ملك أكسوم ال اصبحا ، وتمكن ملك أكسوم من ارسال قوات الى اليمن قمعت هذا التمرد ، وارغم ابرهة على دفع الجزية للدولة الام فى افريقيا ، والخضوع لها • غير أنه بعد موت ال أصبحا جلس على عرش الحبشة ملك ضعيف اسمه بيت اسرائيل ، فقبل مطلب ابرهة ، واعترف بسيادته على اليمن ، وأن تكون تبعيته للدولة الاكسومية فى أفريقيا تبعية اسمية ، والى هذه الفترة ومن الزمن نجد نقشا لابرهة على بعض أحجار سد مأرب يلقب نفسه فيه بالامير التابع لملك الحبشة وأنه « ملك سبأ وريدان وحضر موت ويمنات وعرب النجار وعرب تهامة » (١١٦) •

بدأ ابرهة حكمه كنائب لملك الحبشة لحكم بلاد العرب الجنوبية بهمة ونشاط ، فأخذ يحكم قبضته على بعض المناطق المتطرفة فى جنوب الجزيرة والتى وجد أنها فى حاجة الى ادارة حازمة ، واختار لذلك اعوانا من زعماء العرب الاقوياء ، فولى يزيد بن كبشة أمر القيادة والادارة على امارة كندة ، ثم أوكل اليه أيضا الاشراف على المناطق الاخرى التى

كان يحكمها بعض أقيال سبأ والاسحار ، حتى كاد يزيد أن يكون الوزير العربى لابرهة ، ونجح يزيد بن كبشة فقمع المتمردين فى سبأ ، وسير الحملات لتأديب القبائل التى لم تكن قد اذ عنت لحكم الاحباش ، وأخذ منهم الرهائن حتى تمت له (١١٧) الغلبة . وهذا يدل على أن أبرهة حاول أن يقيم حكومة تجمع بين عرب الجزيرة وأحباشها وذلك حتى لايظهر الاحباش بمظهر المحتلين ، خاصة أن الاحباش كانوا يعتبرون غزوهم لليمن، عودة الاحفاد الى ارض الاجداد (١١٨) ، فقد كان الاحباش يطلقون على ساحل أفريقيا جنوب باب المندب منذ القرن الاول الميلادى الساحل العربى الاوسانى لكثرة العرب الموجودين فيه (١١٩) .

ويعتبر المتخصصون فى تاريخ امبراطورية الروم الشرقية أن المد الحبشى فى جنوب الجزيرة العربية هو عودة لنفوذ الروم فى جنوب البحر الاحمر وانحسار لنفوذ الفرس فى هذه المنطقة ، ومن ثم كان من الطبيعى أن يسعى الروم بعد هذا المد الى محاربة النفوذ الفارسى . واتجهت سياسة الروم الى توحيد القبائل العربية وتأليبها على الفرس (١٢٠) ، وتحت هذا التأثير قامت بعض قبائل معد وحمير بتجريد حملة كبيرة على أرض فارس. وبالطبع كانت سياسة ابرهة هى تدعيم العرب المعادين للفرس تطبيقا لسياسة القسطنطينية . ويذكر المؤرخ الكنسى بريكوبيوس أن ابراموس (أبرهة باللاتينية) وعد جستنيان الامبراطور الرومى بغزو أرض فارس ، وذلك لفتح جبهة جديدة تخفف من هجوم الفرس على منطقة بلاد الرافدين وآسيا الصغرى ، ويبدو أن أبرهة لم يوفق فى غزو منطقة الخليج العربى وعاد أدراجه ، لان ذلك كان مشروعا يفوق امكانياته .

ويبدو — والله أعلم — أن الفشل فى هذه المغامرة هو الذى دفعه الى الاقدام على مغامرة أخرى ، وهى محاولة غزو مكة والحجاز ، الذى كان يشهد فى ذلك الوقت رخاء اقتصاديا وحضاريا (١٢١) لم يشهده من قبل ، فقد تدفق على مدنه العامرة عرب الجنوب الفارون من غزو الاحباش ، حاملين معهم كل تراث الماضى وخبراته مما بعث الحياة فى قراه فنمت الى مدن خاصة ،

وبالذات مكة مقر البيت العتيق ، الذي تأتي اليه قبائل العرب قاطبة للحج كل عام ، أو للعمرة طوال العام ، وفى ظلال اصنامه تعقد الصفقات التجارية التى يشهدون عليها أربابهم ، كما ان سياسة امارة مكة المحايدة فى الصراع بين القوتين العظميين الروم والفرس ، جعلها تستثمر السـلام فى تحقيق الرخاء ، فقد كان فى مكة بيوتات تجارية للروم (١٢٢) وبيوتات تجارية للاحباش ، الذين كانت سفنهم تسير فى خط ملاحى دائم بين ميناء الحبشة الاول « عدول » وميناء مكة الوحيد « الشعيبة » واغلب الظن ان أبرهة قد خشى من تعاظم دور مكة الاقتصادى والدينى الى درجة قد تتزعم عرب الجزيرة وتدعو الى الوحدة وطرد الاحباش من الجنوب ، فضلا على أن تعلق العرب بعباداتهم الوثنية فى الكعبة،مما أفسد أحلام أبرهة فى نشر النصرانية المونوفيزية بين العرب ، وجعلهم تابعين لكنيسة الحبشة . ولهذا عقد العزم على السير شمالا لغزو مكة وهدم الكعبة . وتقدمت قواته من الجنوب فى اتجاه مكة ، وقد جعل فى مقدمتها فيلة مدربة تكتسح أى شىء يقف أمامها ، غير أن أبرهة لقى هزيمة مؤلمة تفوق تلك التى لقيها الرومان فى جنوب الجزيرة منذ ستة قرون سبقت تقريبا ، فكاد أبرهة أن يهلك هو وجيشه مما لقيه من وعورة المسالك ، وتفشى الاوبئة والامراض التى وصفها الطبرى بقوله « ان أول ما رؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب فى ذلك العام » (١٢٣) . ولقد اختلف المؤرخون المسلمون فى تحديد تاريخ هذه الحملة التى عرفها العرب بعام الفيل . فبعضهم جعلها تحدث فى عام ٥٧٠ ميلادية ولكن ذلك التاريخ لايتماشى مع سير الاحداث ، وتتفق الآراء على جعلها عام ٥٤٠ (١٢٤) ميلادية وهو الاكثر صوابا .

ولم يعش أبرهة طويلا بعد هزيمته ، فمات تاركا حكم الجنوب العربى لولدية : الاكبر واسمه يكسوم وهو من أم حبشية ، والاصغر واسمه سنطورق Sanaturces من أم عربية عريقة النسب ، وتجرى فى عروقها الدم الملكى الحميرى ، وقد حكم يكسوم تسعة عشر عاما ، ثم حكم أخوه اثنتا عشرة عاما . ولقد حرفت الروايات العربية اسم سـنطورق الى

المسروق لتنسج حوله حكاية طويلة ملخصها أن ابرهة حاول أن يوحد العنصرين الحبشى والعربى بأن يجعل أحد أبنائه يجمع بين الدمين ، وهداه تفكيره الى أن يربط سلالته بآخر سلالة اسرة حميرية ، ولهذا انتزع من أبى مرة الفياضى الملقب بأسم ذى يزن زوجته وكانت تسمى ريحانة بنت ذى جدن ، رغم أنه كان لها ولد فتى من زوجها العربى وكان يسمى معد يكرب ، وقد رفضت ريحانة أن تجعل أبرهة يقترب منها ، غير أن أبرهة تمكن منها خلسة وهى نائمة فولدت له ولدا سماه هو سنطورق Sanaturces وسمته العرب « المسروق » ، ويستطرد الخيال العربى ليروى كيف شب معد يكرب بن ذى يزن حاقدا على الاحباش ، وراح يسعى لطردهم من البلاد واستعادة ملك أبيه ، وأدرك أن قبائل الجنوب قد تشتت ، وأن تحقيق هذا الحلم لن يتم ، الا بمساعدة احدى القوتين العظميين اللتين كانتا تتنازعان على امتلاك الشرق الادنى فى ذلك الوقت وهما الامبراطورية الساسانية المجوسية والامبراطورية الرومية المسيحية .

سافر معد يكرب بن ذى يزن الى القسطنطينية ، ويروى لنا الأخباريون العرب أنه مثل أمام الامبراطور جستين الثانى (٥٦٥ — ٥٧٨ م) طالبا منه مساعدته فى طرد الاحباش مقابل أن يقدم لدولة الروم كل ما يكفل لها السيطرة على جنوب البحر الاحمر وتأمين تجارتها ، بل والتحالف معها ضد الدولة الساسانية الفارسية ، ويروى لنا الطبرى أن هذا الامير الحميرى ظل ينتظر رد امبراطور الروم حتى قيل أنه أقام ببابه (١٢٥) سبع سنين كاملة حتى جاء الرد بالرفض ، وهو أمر طبيعى فقد كان التحالف قويا بين الروم والحبشة ، فضلا على أن الاحباش كانوا على دين النصرانية مثل الروم حتى ولو اختلفوا فى المذهب . ويقول المسعودى على لسان جوستين أنه خاطب سيف بن ذى يزن قائلا « أنتم يهود والحبشة نصارى ، وليس فى الديانة أن تنصر المخالف على الموافق » (١٢٦) ، فلم يجد سيف أمامه سوى اللجوء الى دولة فارس ، وكان واسطته فى ذلك النعمان بن المنذر ملك الحيرة الذى رتب لقاء بين سيف وبين الملك كسرى انو شروان (٥٣١ — ٥٧٨ م) فى طيسفون عاصمة فارس ، ووافق كسرى

على ما عرضه سيف ، وارسل معة قوة فارسية بقيادة وهرز بن الكامجار حملت على ثمان سفن رست عند ساحل حضرموت ، ولما علم سنطورق بأمر نزول الفرس ، سار اليهم فى مائة الف من جنود الاحباش واتباعه من الحميريين والبدو ، لكن وهرز هزم الاحباش ، وأجلاهم عن اليمن ، وعين سيف بن ذى يزن ملكا بشرط أن يؤدى الجزية السنوية لفارس ، ويقول الطبرى أن سيف بن ذى يزن بدأ حكمه باضطهاد الاحباش ، فثاروا عليه وقتلوه ، ولما بلغ ذلك كسرى ، بعث اليهم وهرز مرة أخرى فى أربعة آلاف من الفرس وأمره « الا يترك باليمن أسودا ولا ولد عربية من أسود الا قتله صغيرا أو كبيرا ، ولا يدع رجلا جعدا قططا قد شارك فيه السودان الا قتله ، فأقبل وهرز حتى دخل اليمن ، ففعل ذلك ولم يترك حبشيا الا قتله » (١٣٧) .

وبالرغم من طرد الاحباش من اليمن ، لم تتوقف العلاقات التجارية بين العرب والاحباش ، وكانت الحركة التجارية بين ميناء الشعيبة وميناء عدول الحبشى دائبة . وقبيل الاسلام ببضع عقود ، تحدث العرب عن ملكين من ملوك الحبشة ، احدهما كان يدعى « أبجر » وكان سابقا لعصر الرسول ، والآخر ابنه واسمه « أصحمة » وهو معاصر للرسول . وكان بينه وبين المسلمين مودة ، ويفسر المؤرخون المسلمون هذا التعاطف أن الاحباش ثاروا على الملك أبجر وقتلوه ، كما أبعدوا ابنه أصحمة ، وتخلصوا منه بأن باعوه الى رجل عربى من قبيلة بنى ضمرة ، فأخذه الى بلاد العرب ، وظل أصحمة يرعى الغنم لسيده العربى ، حتى مات ملك الحبشة المغتصب للعرش دون أن يكون له ولد يخلفه على العرش ، ولم يجد الاحباش مفرا من استدعاء أصحمة من بلاد العرب ، وأجلسوه على العرش ، وظل يحكم الحبشة حتى توفى فى السنة التاسعة من الهجرة . ولم ينس أصحمة مالقيه من معاملة طيبة فى بلاد العرب ، فكان متعاطفا معهم (١٣٨) ، ومع الدين الجديد الذى التف حوله الفقراء والمضطهدون والرقيق ، ومن ثم كان يفهم مبادىء الاسلام لانه خبر العيش بين العرب وعرف ظلم الجاهلية .

وفى فجر الدعوة الاسلامية ، لما اشتد ايذاء كفار قريش للمسلمين أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة الى الحبشة ورغبهم بقوله « لو خرجتم الى أرض الحبشة ، فان فيها ملكا لا يظلم أحد عنده ، وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه » (١٢٩) . فخرج المسلمون متسللين سرا ، حتى أتوا ميناء الشعيبة ، منهم الراكب والراجل ، وانتظروا عند الميناء حتى جاءت سفينتان للتجار حملوهم فيها ، مقابل نصف دينار لكل فرد (١٣٠) . ويقول ابن خثيمة عن عكرمة « ان نفـرا من قريش مروا بجزيرة من جزائر البحر الاحمر ، فاذا هم بشيخ من جرهم فقال من أنتم ؟ » (١٣١) .

وقد وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قرار تهجير المسلمين الى الحبشة بعد تفكير طويل ، ووفق سياسة محكمة ، وما كان ذلك يتم لولا معرفة العرب القديمة بالحبشة وبأرضها وبقبائلها ، فقد « كانت أرض الحبشة لقريش متجرا ووجها » (١٣٢) ، وكان كبار تجار قريش دائمى التردد والترحال اليها ، مثل عمرو بن العاص وعمارة بن المغيرة (١٣٣) ، ولقد كانت هجرة المسلمين الى الحبشة على دفعتين الاولى كانت وفدا اسلاميا ذهب ليتعرف على الحبشة ، ومدى رغبة النجاشى فى استقبال المهاجرين (١٣٤) . وقد أقام هذا الوفد شهرين فى بلاط ملك أكسـوم يتفاوض حتى حصلوا على موافقته ، بعدها تدفق المسلمون على بلاد الحبشة مطمئنين على أنفسهم وعلى دينهم الجديد ، وقلم شعراؤهم فيها قصائد يهجون فيها كفار قريش ، ومن أشهر شعراء المهجر عبد الله ابن الحارث ، وعثمان بن مطعون ، ويلاحظ الدارسون أن الرسول صلى الله عليه وسلم اختار مندوبا عنه لدى بلاط ملك الحبشة ، وهذا المندوب هو عمرو بن أميه من بنى ضمرة (١٣٥) ، وهى قبيلة عربية لها تاريخ عريق فى التعامل مع الاحباش ، فما من شك أن دراسة تاريخ قبيلة بنى ضمرة وتتبع فروعها سوف يكشف تفاصيل كثيرة عن تاريخ العلاقات بين العرب وشرق أفريقيا قبل الاسلام . والذى لاشك فيه أن هذه العلاقات الطيبة

بين بلاد العرب والحبشة ، وحسن استقبال ومعاملة اللاجئين المسلمين المهاجرين ، هى التى جعلت الفتوحات الاسلامية فيما بعد تتفادى فتح الحبشة ، بل تركتها وشأنها ، بل لعب الاحباش دورا فى الدعوة الاسلامية، ويكفى أن نشير الى بلال الصحابى ومؤذن الرسول .

ومنذ هجرة المسلمين ، لانسمع شيئا عن الحبشة ، فقد انطوت على نفسها بعد تدهور ميناء عدول ، همزة الوصل بينها وبين العالم الخارجى . وبعد فقدان دولة الروم لممتلكاتها فى مصر وشمال أفريقيا وبلاد الشام ، قطع الجسر البرى والبحرى الذى كان يربط بين الخليفتين ، فتوقفت سوق أكسوم ، فحل به الكساد وهجره التجار ، ولم نسمع بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم عام ٦٣٤م أن أحدا من العرب قد وطأت قدماه أرض الحبشة ، الا ما كان من أمر حملة بحرية صغيرة ، ارسلها عمر بن الخطاب — ثانى الخلفاء — وذلك فى عام ٦٤١م (٢٠ هـ) الى ساحل الحبشة ، ولم تكلل بالنجاح . ومنذ ذلك الحين ظل المؤرخون والجغرافيون المسلمون يجهلون أرض الحبشة وأخبارها ، فقد شغل العرب بالشمال ونسوا أمر الجنوب ، حتى جاء المقريزى عام ٨٤٥م . فكان أول مؤرخ عربى ذكر أخبارا صحيحة عن أقاليم الحبشة وتاريخها ، أى بعد أكثر من قرنين من الصمت الكامل عن علاقات العرب بشرق أفريقيا . غير ان انتشار الاسلام فى شمال أفريقيا بعد طرد الروم منها خلال الفترة من ٦٧٠ — ٦٨٣ م ، وتحول شمال غرب أفريقيا الى بلاد عربية اللسان ، مسلمة العقيدة ، أدى الى تسلل الحضارة العربية والدين الاسلامى الى غرب أفريقيا ووسطها (١٣٦) ، وأقبل زنوج النيجر على الاسلام الذى أخذ ينتشر ومعه الحضارة العربية ، ولا يزال الاسلام يحتل مركزا عاليا شمال غابات أفريقيا المطيرة (١٣٧) .

هوامش البحث

١ ــ جيمس برستيد (ترجمة أحمد فخرى) انتصار الحضارة ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ١١ وكذلك انظر

J.H. Breasted : A History of Egypt From the Earliest Times to the Persian Conquest, Vol. II, 1927, p. 126; K. Sethe :Urkunden des Aegyptischen Altertums, Vol. I, p. 120-127, p. 128-131.

٢ ــ ترجم هذا النقش الى العربية الاستاذ الدكتور أحمد فخرى فى كتابة مصر الفرعونية : (القاهرة ١٩٥٧) ص ١٢١ ــ ص ١٢٢ =

Breasted, J.H, Ancient Records of Egypt, 1906, Vol. I.

٣ ــ أنظر أنظر : سيد أحمد الناصرى « التأثير الرومانسى للحضارة المصرية على تفكير شعوب البحر المتوسط من الغزو الفارسى حتى العصر القبطى » (مقال) (ندوة مصر وعالم البحر المتوسط) الناشر دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ١١٤ ــ ١١٥ .

٤ ــ عبد المنعم ابو بكر : « مضمون الحضارة الافريقية فى الحضارة المصرية » (مقال) (مجلة رسالة افريقيا ، العدد الخامس ، القاهرة ١٩٧٣ ص ١٢) ، أنظر محاضرة الرئيس السنغالى لبوبولد سنجوز التى القاها فى جامعة القاهرة يوم ١٦ فبراير ١٩٦٧ بمناسبة منحة درجة الدكتوراة الفخرية بعنوان « أسس الافريقانية أو الزنجية والعروبة » نشرت فى مطبعة جامعة القاهرة ١٩٦٧ ، خاصة ص ٢٣١ و ص ٣٩ .

(5) A.J. Arkell : A History of Sudan to 1821 (London 1962) p. 87.

٦ ــ و.و. امرى (ترجمة تحفة حندوسة) مصر وبلاد النوبة ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ١٨٩

(7) J. Quibbell : Excavations at Saqqara, London 1905-6 Pls. XXVI-XXIX; P. Perdrizet : Les Terres - cuites grecques de la Collection Fouquet, Nancy, 1921, p. 43.

٨ ــ انظر احمد فخرى : المرجع نفسه ص ٢٣٢ وكذلك أنظر : جورج فاضلو حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى فى العصور القديمة (ترجمة السيد يعقوب بكر ، القاهرة ١٩٥١ ص ٣٠ وكذلك

انظر نقولا زيادة « دليل الملاحة وتجارة الجزيرة العربية » الجزيرة العربية قبل الاسلام (دراسات فى تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الثانى) الرياض ١٩٧٩ ص ٢٥٩ وما بعدها ، شوقى عطا الله الجمل : تاريخ كشف افريقيا ، الطبعة الثانية مكتبة الانجلو ١٩٨٠ (ص ١١٨ — ١٢٠) .

(9) W. H. Fairman, Ancient Egypt and Africa, African Affairs, Congress of African Studies, Royal Society of African Studies March (1965) pp. 1-15.

شفيق علام « بعض العوامل الحضارية التى وصلت مصر من البلاد الشرقية فى عصر ما قبل التاريخ ، دراسات فى تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الثانى : الجزيرة قبل الاسلام ، جامعة الرياض ١٩٧٩ ص ٣٣١ — ٣٣٥ .

(10) E. Droiton and J. Vandier : les peuples de l'Orient mediterranean, II, l'Egypte, (Paris 1936) p. 513.

وعن انتشار الاسماء المصرية بين الافارقة انظر :

Arkell, op. cit., p. 114; F. Griffith, The University of Oxford Excavation in Nubia (no. X, 1921 p. 171.

كما يلاحظ المهتمون بدراسة الالوان المصرية ودلالاتها أن اللون الاسود أو الاسمر هو اللون المقدس عند المصريين لانه اللون المستخدم فى تصوير اوزير ، كما كانت تدهن به الشعور المستعارة للالهة وكذلك لحاها ، بل أن ارضيات المعابد وجدرانها الداخلية كانت تطلى باللون الاسود ، كما أن ايزيس اعتبرت ربه ارض مصر السوداء ، انظر المقال الطريف : ضحى مصطفى « الالوان ودلالاتها التاريخية فى مصر القديمة » مجلة المؤرخ المصرى ، العدد الخامس يناير ١٩٩٠ ، ص ١٤ ـ ص ٢٧ . ، أيضا انظر : على عبد الله الخاتم : اثيوبيا والاثيوبيون بين المصادر الاثرية والمصادر اليونانية (رسالة ماجستير تحت أشراف د. سيد أحمد الناصرى ، كلية الاداب جامعة القاهرة ١٩٧٦ ، ص ١٩ وكذلك راجع امرى ، المرجع السابق ص ٢٣١ .

(11) «Necho and the Red Sea, Some Considerations, J.E.A. Vol. 63 (1977) p. 151.

١٢ — جورج سارتون : تاريخ العلم القديم فى العصر الذهبى اليونانى (ترجمة لفيف من العلماء) دار المعارف بمصر ١٩٥٧ ص ٣٨١

(13) Herodotus, Book IV, 42.

(14) Sabatino Moscati (translated by Alastair Hamilton), The World of the Phoenicians, Weidenfeld and Nicolson, London 1968, p. 86.

(15) E.M. Cary and E.W. Warmington, The Ancient Explorers, Pelican Series, 1964, pp. 114-115.

(16) Ibid, p. 115.

(17) Herodotus, Book II, 30.

وللترجمة العربية انظر : هيرودوت يتحدث عن مصر ، ترجمة محمد صقر خفاجه وتقديم وشرح وتعليق احمد بدوى ، دار القلم ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ١٠٩ — ١١٠ .

١٨ — نقولا زيادة ، المقال السابق ص ٢٥٩ .

١٩ — وهذا هو راى اغلب علماء الاجناس الذى لخصه الرئيس ليوبولد سنجور فى محاضرته « الافريقانية والعروبة ، المقال السابق انظر هامش ٤ ، وهامش ٩٠ ، وهامش ١١٨ وكذلك انظر :

J. Vandier : Manuel d'archaeologie egyptienne, tome 1 er (l'Epoque de Formation) Paris 1952) p. 10 ff.

وكذلك قارن شفيق علام ، المقال السابق ص ٣٣٢ .

Also cf : Caton Thompson, «The Evidence of South Arabian Palaeolith in the Question of Pleistocene Land Connections with Africa» Pan-African Congress on Pre. history, Proceedings of the Third Congres Livingstone (London 1957), PP. 383.

٢٠ — رشيد الناضورى : المغرب الكبير ، الجزء الاول ، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٦ ص ٦٥ — ٦٦ ، ص ١٣٧ — ١٣٨ ، و ص ١٥١ .

(21) E.W. Warmington in Oxford Classical Dictionary Sub Libya.

(22) Herodotus, Book II, 30; Book III, 10; Cary and Warmington op cit., pp. 45, 86 and p. 165.

٢٣ — نقولا زيادة : المقال السابق ص ٢٥٩ ، جورج حورانى المرجع السابق ص ٣١ .

(24) Sykes, Percy : The Story of Exploration and adventure, Vol. I, London 1949, p. 196; D.E Hayes, The Antiquities of Tripoltania Tripoli, 1965, p. 99 ; P. Romanelli, Leptis Magna, 1959, p. 3-4.

(25) Romanelli, Ibid, p. 3.

٢٦ ـ م روستوفتزف (ترجمة زكى على ومحمد سليم سالم) تاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى ، دار النهضة المصرية القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٣٨١ .

٢٧ ـ دونالد وايدنر (ترجمة على احمد فخرى وشوقى عطا الله الجمل وتقديم عبد الملك عوده) تاريخ افريقيا جنوب الصحراء، الجزء الاول ، مؤسسة سجل العرب القاهرة ص ٢٥ .

(28) Herodotus, Histories (translated by Audberey Selincourt, Perguin Classics London 1966, p. 326.

(29) Moscati, op. cit. p. 124 and pp. 181-184.

(30) Athenaeus, II, 44.

(31) Moscati, op. cit., p. 184.

(32) Ibid, p. 86.

٣٣ ـ دونالد وايدنر : المرجع السابق ص ٢٥ ـ ٢٧ .

٣٤ ـ المرجع نفسه ص ٢٦ .

(35) Oxford Classical Dictionary, loc. cit. (Sub Libya)

(36) P. M. Frazer ; Ptolmaic Alexandria, Oxford 1972, Vol. 1, p. 175. ;

(37) A.H. Jones and Elizabeth Monoroe : A History of Ethiopia London, 1964, pp. 24-25.

٣٨ ـ جرس احمد جوليد : مقديشيو عبر التاريخ (رسالة ماجستير غير منشورة ـ كلية الاداب جامعة الخرطوم ، ص ١٢٣ ، وكذلك انظر :

P.M. Frazer, op. cit., p. 175.

(39) W.W. Tarn and G. Griffith, Hellenistic Civilization p. 246; Frazer, op. cit., p. 176-179.

وهناك ترجمة عربية لهذا الكتاب بعنوان : الحضارة الهاليذستية ترجمة عبد العزيز توفيق ، القاهرة . ١٩٦٦ ، ص ٤٥٩ .

(40) J. Ball, Egypt in the Classical geographers, Cairo 1942.

٤١ — جورج حورانى ، المرجع السابق ص ٥٧ .

٤٢ — ابراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، الجزء الثالث ، ص ٣٣٥ اعتمادا على رأى بريوت .

(43) Theocritus, Idyl. XV (edited by A.S. Gow with Commentary and translation, Vol. III, Cambridge 1950. pp. 159-160.

٤٤ — على عبد الله الخاتم ، البحث السابق ، ص ٨٩

(45) W.W. Tarn and Griffith, op. cit., pp. 246-147.

٤٦ — حرس أحمد جوليد : البحث السابق ص ١٠١ — ١٢٩ .

(47) Tarn. op. cit. p. 246.

(48) E. Bevan : History of Egypt under the Ptolemaic dynasty Methuen and Co. ltd., London 1927, p. 245 ; F. Hintze : Civilization of the old Sudan, Berlin 1967, pp. 21-27.

وكذلك ابراهيم نصحى : المرجع السابق الجزء الثالث ص ٤٠٤ نقلا عن الاستاذ جوجيه Jouguet وكذلك حورانى المرجع السابق ص ١٠٠ — ١٠١ ، على الخاتم : البحث السابق ص ٩٠ ، حرس جوليد ، البحث السابق ص ١٢٩ .

(49) B.G. Haycock; Landmarks in Kushite History, J.E.A. (1968) p. 229.

(50) Tarn op. cit., p. 120; Pierre Grimal & Others : Hellenism and the Rise of Rome, Weidenfeld and Nicolson 1968, p. 291.

(51) Tarn op. cit., p. 247.

٥٢ — نقولا زيادة : المقال السابق ص ٢٦ .

(53) Athenaeus, IV, 148, B.

(54) E. Breccia, Terracotte Figurate, Vol. I, P. 63; Perdrizet op. cit., 168; G.H. Beardsley : The Negro in Greek and Roman civilization (John Hopkins University, Studies in Hellenic Studies, Vol. 49 (1929) P. 39.

٥٥ ـ ديتلف نيلسن و فرتز هومل ، ول رودو كاناكيس وادولف جرومان : التاريخ العربى القديم ترجمة واستكمله الدكتور فؤاد حسنين على ، وراجعه الدكتور زكى محمد حسن ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٣٣ .

R. Bagnall : The Administration of the Ptolemic Possessions outside Egypt, Leiden E.J. Brill 1976, P. 151.

(56) P.M. Frazer, op. cit. P. 178.

٥٧ ـ عبد اللطيف احمد على : مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الاوراق البردية ، دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٢ ص ٦٤ ، سيد أحمد الناصرى : مصر تحت حكم الاغريق والرومان من الفتح المقدونى حتى الفتح الاسلامى ، دار النهضة العربية بالقاهرة ١٩٨٩ ، ص ١٢٧ ـ ١٢٩ .

٥٨ ـ سيد أحمد على الناصرى : المرجع السابق ص ١٦٩ ـ ١٧١ ، شوقي الجمل : تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها : الطبعة الثانية ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٠ ص ٤٠ ـ ٤١

Warmington, loc. cit (in Oxford Classical Dictionary) sub Libya ; Cary and Warmington, op. cit., PP. 45 ff, 62 ff, 88 ff and P. 165 f.

(59) S. Chapman and O. Dunham : The Royal Cemetries of Kush Boston (1952) P. 8.

٦٠ ـ مصطفى مسعد : الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٧ .

(61) G. W. Van Beek, «Monuments of Axum in the Light of South Arabian Archaeology,» Journal of the American Oriental Society, 37 (1967), PP. 113-122.

٦٢ ـ عبد المنعم عبد الحليم سيد « الاصول الحضارية المصرية القديمة لبعض المظاهر الحضارية فى الجزيرة العربية قبل الاسلام (دراسات تاريخ الجزيرة العربية ـ الكتاب الثانى : الجزيرة العربية قبل الاسلام) جامعة الملك سعود ، الرياض ١٩٨٢ ص ٣٥٩ .

(63) M.K. Abdelaleem : Alexandria Trade in Aromata in the Graeco. Roman Times, Un-published M.A. Thesis, Alexandria Univ., 1952.

وقارن ذلك بما جاء فى مقاله « تجارة الجزيرة العربية مع مصر فى المواد العطرية فى العصرين اليونانى والرومانى (دراسات تاريخ الجزيرة ، الكتاب الثانى ، ص ٢٠١ ، ٢٠٩ .

٦٤ ـ حورانى المرجع السابق ص ٣٠ وكذلك انظر :

J.I. Miller : The Spice Trade of the Roman Empire From 29 B.C. to 641 A.D., Oxford, The Clarendon Press, 1969, P. 21.

(65) Edward Ullendorf : The Ethiopians - An Introdu-ctio nto Country and People, Oxford University Press, 1960, Chapter IV, P. 49.

(66) Ullendorf, op. cit., Chapter VI, PP. 118-120.; cf; Sylvia Pankhurst : Ethiopia and its Cultural History with a Forward by Rev. Canon John Douglas, Lalibella House, Essex (1955), P. 48.

٦٧ ـ حسن أحمد جوليد : المرجع السابق ، ص ٢٧ وما بعدها .

٦٨ ـ سيد أحمد على الناصرى : الصراع على البحر الاحمر (دراسات تاريخ الجزيرة العربية الكتاب الثانى) : الجزيرة العربية قبل الاسلام ص ٤٠١ ـ ٤٢٨ (ص ٤٢٢) مع تجاهل تعليقات من يطلق على نفسه اسم المحرر لانها متحذلقه ولا يفهم اليه البحث .

٦٩ ـ المقال السابق : ص ٤٢٢ .

٧٠ ـ سيد أحمد على الناصرى : الرومان والبحر الاحمر « سمنار الدراسات العليا للتاريخ البحر الاحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة ، ابحاث الاسبوع العلمى الثالث ، ١٠ ـ ١٥ مارس ١٩٧٩ ، ص ٣٠ نقلا عن

J.I. Miller, op. cit., P. 10.

٧١ ـ محمد عبد الغنى سعودى : قضايا أفريقية ـ الكويت ١٩٨٠ ، ص ٨٤ ، محمد السيد غلاب : التجارة فى عصر ما قبل الاسلام ، الجزيرة العربية قبل الاسلام ، ص ١٨٩ ـ ١٩٨ .

٧٢ ـ سيد احمد على الناصرى : المقال السابق ، صفحات ٥٨
٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ .

٧٣ ـ محمد عبد الغنى سعودى : المرجع السابق ، ص ٨٧ .

(74) W.H. Schoff, The Periplus of the Erythrean Sea
'ranslated From Greek) New York and London, 1912.

وقد قام الاستاذ نقولا زيادة بترجمة الفصول من ١٩ الى ،
وعلق عليها فى مقاله السابق .

وكذلك انظر :

Lionel Casson: The Periplus Maris
ythraei [Text with Introduction Translation and Commen-
y] Princeton University Press 1989, p. 19, p. 283-289.

كما ان هناك ترجمة عربية كاملة لكتاب الطواف تحت الطبع لصا‍
البحث .

٧٥ ـ نقولا زيادة المقال السابق ، ص ٢٦٣ ــ ٢٦٤ .

٧٦ ـ يقول طرفه بن العبد فى وصف ميناء عدول :
عدولية أو من سفين ابن يامن : يجور بها الملاح طورا ويهتدى

٧٧ ـ عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ، دار الفكر العربى
القاهرة (بدون تاريخ) ص ١٩ .

٧٨ ـ اطلق الجغرافيون المسلمون على المنطقة الممتدة من زيلع ـ
مقديشيو اسم أرض البربر ، واعتقدوا خطئا أن زيلع ت
أرض اليمن لشدة ارتباطها السكانى والاقتصادى بالجز
العربية ، كما اعتقدوا خطئا أن خليج عدن هو بحر البربر : أ
أبن خرداذبة (أبو القاسم بن عبد الله بن حزداذابة) ط
برايل ليدن ١٣١٦ هـ . ص ٦١ ، وكذلك انظر نقولا زيادة
المقال السابق ، ص ٢٧٦ وما بعدها .

٧٩ ـ أسقط مؤلف كتاب الدوران حول البحر الأحمر سهواء أو ع
اسم ميناء الجرعاء Gerrha (ميناء الهفوف حاليا على السا
الشرقى للمملكة العربية السعودية) من قائمة الموانىء الهامة
ربما لان اهمية هذا الميناء كانت قد تضاءلت بعد تأسيس وازد
ميناء أبولوجوس (الأبله) ، أنظر نقولا زيادة المرجع السابق
ص ٢٦٣ ــ ٢٦٩ .

٨٠ ـ انظر حسن جوليد : رسالة الماجستير السابقة الذكر ،
١٤٠ ــ ١٤١ ، وقارن ترجمة الفصل الثلاثين من كتاب د
الدوران حول البحر الاحمر ترجمة نقولا زيادة ، المقال السا
ص ٢٦٧ .

(81) Strabo; Geographia, xviii, I, 13.; Pliny : Historia Naturalis. XII, 87.

(82) A. Paul, A History of the Beja tribe of the Sudan, London 1940, pp. 23-25.

وكذلك انظر شفيق علام ، المقال السابق ، ص ٣٣٣ وما بعدها ، حيث رصد الجذور السامية فى اللغة المصرية القديمة .

٨٣ ـــ مصطفى محمد مسعد : « بعض مظاهر العلاقات فى الجزيرة العربية وأوطان البجة بشرق السودان قبل الاسلام » ، الجزيرة العربية قبل الاسلام ، المجلد الثانى ، الرياض ١٩٨٢ (من ص ٣٩١ ـ ٣٤٠) وبالذات ص ٢٣١ ـ ٢٣٢ .

٨٤ ـــ هذا هو رأى استاذنا الدكتور مصطفى مسعد نورده على سبيل الامانة العلمية ، ورغم أن الدليل ينقصه لكنه أقرب الى الحقيقة والله أعلم .

(85) H.A. McMichael. A. History of the Arabs in the Sudan ,Vol. I. London 1949, p. 3-4.

٨٦ ـــ حسن جوليد الرسالة السابقة ، ص ٢٦ .

٨٧ ـــ ياقوت : معجم البلدان ، ص ٣٢٣ .

٨٨ ـــ ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ ٤ ص ٢٥٨ .

٨٩ ـــ مصطفى مسعد : المقال السابق ، ص ٢٩٧ .

٩٠ ـــ تقتضى الامانة العلمية ان انقل راى الاستاذ الدكتور مصطفى مسعد كما ذكره ، غير اننى استبعد أن يكون اسم « داروا » اسما عربيا ، لانه اغلب الظن تحريف لاسم داريوس الملك الفارسى . فلا اذكر على حسب علمى اسماء عربية قديمة بهذا الاسم ، الا اذا صححنى المتخصصون فى اللغات السامية أو العربية الجنوبية .

ناحية أخرى يرى الاستاذ « فان بيك Van Beek » فى تقديمة لكتاب مونتجمرى فى طبعته الثانية انه كانت هناك دولتان كل منها تعرف بسبأ واحدة ذكرتها التوارة باسم شيبا وهى سبأ الام فى جنوب الجزيرة ، والثانية باسم سبيا وهى سبأ الافريقية (سفر التكوين ١٠ ـ ٧) كانت تابعة السبأ الاولى طوال الالف الاول قبل الميلاد انظر:

James A. Montgomery : Arabia and the Bible [Prolegomenon by Gus. W. Van Beek], Ktav publishing House Inc., 1969, (P. XIV by Van Beek), and P. 142 (by Montgomeny).

٩١ ـــ انظر مصطفى مسعد المقال السابق ، ص ٢٩٧ .

٩٢ــ انظر الهمدانى : صفة جزيرة العرب ، نشر الاكوع ص ٢٧٣ .

٩٣ــ عبد المجيد عابدين ، المرجع السابق ، ص ١١ .

٩٤ــ عبد المجيد عابدين : المرجع السابق نفس الصفحة .

٩٥ــ G.A. Wain wright, Early Foreign Trade in East Africa, **Man**, Vol. XLVII (November 1947) p. 143.

وكذلك انظر الطبرى ، الجزء الاول ص ١١٨١ .

٩٦ــ Jones and Monorae, op. cit., p. 25. ; Budge, A History of Ethiopia vol. 1. London 1938, p. 193.

٩٧ــ جاء فى الاساطير الحبشية أن ملكها هو ابن الانثى الشمسية المسماة ماكد أو ماقدة (أى بلقيس) من البطل القمرى حكيم (أى سليمان) انظــر :

انظر : ديتلف نيلسون وآخرون : المرجع السابق ص ٣٦ وص ٢٢٧ وكذلك انظر جواد علي : « اديان العرب قبل الاسلام ، دراسات تاريخ الجزيرة الجزء الثانى الجزيرة العربية قبل الاسلام (من ص ١٠٧ — ١١٤) وخاصة ص ١٠٩ .

٩٨ــ عبد المجيد عابدين : المرجع السابق ، ص ١١ .

٩٩ــ نفس المرجع ص ١٤ .

١٠٠ــ عن ثورات اليهود على الرومان وطرد الرومان لليهود من فلسطين انظر كتابى : تاريخ الامبراطورية الرومانية السياسى والحضارى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٨ ، دار النهضة العربية ص ١٧٨

١٠١ــ عن اليهودية والنصرانية فى جنوب الجزيرة العربية وأهم كتب التراث العربى التى تحدثت عن ذلك هى : الاصفهانى (حمزة بن الحسن) تاريخ سنى الملوك ، الارض والانبياء ، مكتبة الحيــاة بيروت ١٩٦١ ، وكذلك الطبرى (ابو جعفر محمد بن جرير تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٧٠ ، انظر أيضا ابن اسحق (محمد بن اسحق ابن يسار) سيرة ابن اسحق ، المسماة بكتاب المبتدأ أو المبعث أو المغازى تحقيق محمد حميد الله ، الرباط ١٩٧٦ . وكذلك ابن هشام ، السيرة النبوية ، الجزء الاول ، تحقيق محمد محمد محيى الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية بالقاهرة (بدون تاريخ) .
وعن اليهود فى الجزيرة العربية قبل الاسلام انظــر : اسرائيل ولفنسون تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية وصدر الاسلام مطبعة الاعتماد ، القاهرة ١٩٢٧ .

١٠٢ــ انظر : Philip Hitti, History of the Arabs.

ومن المعروف أن كنيسة نجران المونوفيزية رغم ما نزل بهــا من اضطهاد بقيت صامدة حتى ظهور الاسلام ، فقد ذهب وفد من نصارى نجران لزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة المنورة

حيث اكرم الرسول وفادتهم وقام على خدمتهم بنفسه فى مسجده بالمدينة المنورة ، واعتنق أغلبهم الاسلام ، بعد أن فتح عمر بن الخطاب اليمن ، وبقى بعضهم على دينه ، وقد أجلى عمر هؤلاء الى العراق . عام ٦٣٥ — ٦٣٦ م . ليعيشوا مع اشقائهم هناك ، وذلك حماية لهم من أى اضطهاد قد يتعرضون له .

١٠٣ — وحتى بعد دخول الاسلام الى اليمن ظلت صورة خاتم سليمان **منقوشة على جدران المساجد العتيقة والاثرية فى اليمن .**

١٠٤ — يعتقد البعض أن اسم عيزانا الحبشى هو تحريف لاسم اذينة Odenathus وهو اسم عربى شمالى ومن **اشهر من تسموا** وبهذا الاسم اذينة ملك تدمر ، زوج الزباء ووالد وهب اللات وقد عثر صاحب البحث على احدى قطع النقود فى الفيوم لهذا الملك انظر :

S. EL-Nassery and G. Wagner. A New Roman Hoard from Karanis B. I. F. A. O, Vol. 76 (1975).

وعن اذينة انظر : د. سيد احمد الناصرى : تاريخ الامبراطورية الرومانية ص ٣٧٠ ، ٣٧١ ؛ مصر تحت حكم الاغريق والرومان ص ٢٤٠ — ٢٤٥ .

١٠٥ — **انظر عبد المجيد عابدين ، المرجع السابق ، ص ٢٠ — ٢١ .**

١٠٦ — **عبد المجيد عابدين ، المرجع السابق ، ص ٢٤ .**

١٠٧ — **هذه النقوش الاغريقية منشورة فى**

Corpus Inscriptorum Semiticarum, pars quarta. parisiis 1899-1908. p. 398, nos. 1-17.

١٠٨ — Conti Rossini :

«Expedtion et possession des Habshat en Arabie», Journal Asiatique (Jouillet - Septembre) 1921.

كذلك انظر عبد المجيد عابدين ، المرجع السابق ، ص ٢٨ — ٣١ .

١٠٩ — بسم الله الرحمن الرحيم : « أهم خير أم قوم تبع ، والذين من قبلهم اهلكناهم انهم كانوا مجرمين » سورة الدخان آية ٣٦ .

١١٠ — انظر عبد المجيد عابدين : المرجع السابق ، ص ٣١ .

١١١ — R. Dussaud, Péntration des Arabes en Syrie, Paris 1955, p. 18 ff.

---

١١٢ — بسم الله الرحمن الرحيم : « والسماء ذات البروج (١) واليوم الموعود (٢) وشاهد ومشهود (٣) قتل أصحاب الاخدود (٤) النار ذات الوقود (٥) اذ هم عليها قعود (٦) وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود (٧) وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد (٨) الذي له ملك السموات والارض والله على كل شيء شهيد (٩) . سورة البروج آية من ١ — ٩ .

١١٣ — يرى عبد المجيد عابدين أن اسم أرياط هو تحريف للكلمة الحبشية « حواريات » أى « الحوارى » انظر عبد المجيد عابدين المرجع السابق ص ٥٩ ، بينما يرى صاحب هذا البحث أن اسم ارياط هو تحريف لاسم اريطاس Arethas الذى تسمى به بعض ملوك الانباط ، ولفظ أريطاس هو التحريف الاغريقى الرومانى لاسم الحارث وهو اسم عربى شمالى ، اما الطبرى فيرى أنه اسمه كان ابا صحم ، وربما كانت تلك كنيته ، انظر الطبرى الجزء الاول ص ١٩٣ . ويرى عابدين أن أبا صحم هو الاسم الاصلى وان كلمة حوارى هى الكنية التى تدل على القداسة والتدين .

١١٤ — Encyclopaedia Britannica, under Falashs.

انظر عبد المجيد عابدين ص ١٦ .

١١٥ — الأكليل للهمدانى نشر نبيه فارس ص ١٥٦ ؛ عبد المجيد عابدين ص ٥٧ .

١١٦ — Philip Hitti, History of the Arabs, fifth edition, Revised, edition, London, Macmillan 1951.

١١٧ — انظر عبد المجيد عابدين المرجع السابق ص ٦٢ ، وكذلك جواد على « تاريخ العرب قبل الاسلام » ، الجزء الثانى ، ص ١٩٨ — ٢٠١ .

١١٨ — Edward Ullendorf, The Ethiopians, Oxford University Press, 1960, 50, chaptes IV

تقول التوراة (سفر التكوين ١٠ — ٦) أن شيبا وسبأ وديدان وغيرهم من أبناء الجنوب العربى هم أبناء كوش الأفريقى ، ومن ثم يعنى ذلك وجود أصل أفريقى لسكان الجزيرة العربية ، غير أن الاستاذ مونتجمرى ينفى ذلك لاسباب تاريخية وسياسية رغم وجود العلاقات العرقيـة والحضارية عبر باب المندب فى العصور المتأخرة حتى أن التوراة نسبت عرب الجنوب لجد أفريقى ، لكنه ينفى بشدة وجود أى علاقة بين شبه الجزيرة وأفريقيا قبل القرن الثانى عشر ق . م ، والتى وصلت اقصاها فى القرن العاشر ق . م وحتى القرن السابع ق . م حيث بدأ السبئيون يهاجرون باعداد كبيرة الى افريقيا والحبشة انظر :
Montgomery, Arabia and the Bible, P. XIV, P. 42.

١١٩ — Kenneth Inghaw : East Africa, longmans 2nd edition; 1963, p 1 ff.

١٢٠ — كانت عيـون امبراطورية الروم الشرقية مركزة على الجـزيرة العربية منذ أواخر القرن الخامس الميلادى ، فقد سعت الى عقد معاهدة صداقة مع امارة مكة فى عهد أميرها هاشم بن عبد مناف الجد الاكبر للرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم حذت امـارة الغساسنة حذو الامبراطورية الرومانية الشرقية فعقدت معاهدة صـــداقة مع امارة مكة أيضا ، لانها كانت تابعة للـروم ، وبمقتضى هذه المعاهدة سمح الروم لقوافل قريش أن تجـوب مدن الشام التى كانت تدخل فى حوزة امبراطوريتهم ، خاصة سوق

بصرى فى حرية تامة ، مما ساعد على ازدهار امارة مكة ، وتحولها لمركز رئيسى لتجارة القوافل بين جنوب الجزيرة وشمالها . وهذا يدخل ضمن مخطط الروم لمحاربة النفوذ الفارسي فى الجزيرة العربية واعادتها الى النفوذ الرومى كميراث عن الرومان .

١٢١ـــ احمد الحوفى : الحياة العربية من خلال الشعر الجاهلى ، الطبعة الخامسة ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ١٩٧٢ ص ٩٧ وما بعدها .

١٢٢ـــ O'leary, De Lacy. : Arabia before Mohammed, p. 180.

١٢٣ـــ الطبرى الجزء الاول : ص ٩٤٥ .

١٢٤ـــ عبد المجيد عابدين ص ٢٦٣ .

Hitti, op. cit, idem.

١٢٥ـــ الطبرى الجزء الاول ص ٩٥٢ .

١٢٦ـــ المسعودى (أبو الحسن على ابن الحسين على) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، الجزء الثانى ، تحقيق محمد محيى الدين الحميد ، المكتبة التجارية ، القاهرة ص ٢٥٠ .

١٢٧ـــ الطبرى : الجزء الاول ص ٥٥٧ الى ٩٥٨ .

١٢٨ـــ عبد المجيد عابدين ، المرجع السابق ، ص ٧٣ .

١٢٩ـــ ابن اسحق ، السيرة ، ص ١٩٤ ، وابن هشام الجزء الاول ص ٣٣٠ . وابن الاثير الكامل ، الجزء الثانى ص ٧٦ .

١٣٠ـــ الصالحى : سبل الهدى ، جزء٢ ص ٤٨٦ .

١٣١ـــ ناصر الرشيد ، المقال السابق ، ص ٢٦١ .

١٣٢ـــ الاصفهانى ، الجزء الاول ص ٥٦ .

١٣٣ـــ ناصر الرشيد ، المقال السابق ، ص ٢٢٦ ــ ٢٢٧ .

١٣٤ـــ عبد المجيد عابدين ، المرجع السابق ، ص ٧٩ ــ ٨٢ .

١٣٥ـــ أبن مهمها (ناصر الرشيد ، المقال السابق ، ص ٢٢٦ ــ ٢٢٧) .

١٣٦ـــ شوقى الجمل ، المرجع السابق ، ص ٤٥ ــ ٤٦ ولذلك انظر :

Johnson, H.H. : A History of the Colonization of Africa by Alien Races (Cambridge 1913) p. 54.

ولنفس المؤلف ايضا انظر :

The Opening up of Africa, (London 1928) p. 146.

(تم بعون الله)

تم الطبع بمطبعة جامعة القاهرة
والكتاب الجامعى
المدير العام
البرنس حموده حسين عمر
١٩٩٠/٥/٣٠

رقم الايداع ١٩٩٠/٤١٩٣

الترقيم الدولى ٢ ـ ٠٥٨٩ ـ ٠٤ ـ ٩٧٧

(مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعى ١٩٨٩/٧٤٢/١٠٠٠)